الطبعة الثانية

شريف لطفي

الأرمغان

رواية

الدار المصرية اللبنانية

الأرمغان

رواية

لطفي، شريف.
الأرمغان: رواية/ شريف لطفي .- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
296 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 886 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان 813
رقم الإيداع: 1742 /2014

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: جماد آخر 1435 هـ - أبريل 2014م
الطبعة الثانية: 2014م

شريف لطفي

الأرمغان

الأرمغان: كلمة من أصل فارسي بمعنى الهدية أو هدية المسافر كانت شائعة في العصر العثماني وما زالت في عامية مدينة حلب.

الدار المصرية اللبنانية

إلى من أعاد للحياة معانيها،

أهدي هذا الكتاب

إلى ف.ب .

إلى إسماعيل وتيمور،

أجمل ما منحتني الدنيا إياه

واللذين أحيا بهما ولهما

والدكما الذي سيفتخر بكما دوما

البداية

المكان هو المكان، والزمان ...هو ذاته.عجبا.

كيف جاءنا إذًا هذا الداهية؟ هذا الطاغية؟ هل جاء في غفلة من الزمن أم في غفلة منا؟ هل كان مختبئا بيننا؟ أم كان نصب أعيننا طوال الوقت؟ كيف حدث ما حدث؟

هل سُرِقنا مرة واحدة فكانت المفاجأة؟

أم تمت السرقة رويدًا رويدًا فكانت الصدمة؟

المحصلة في آخر المطاف واحدة. فلمَ نتباكى على اللبن المسكوب؟ ما هو الداعي إذًا أن ندقق في التفاصيل ونتحقق منها؟

لكن يا سادة يا كرام اعلموا أن الشيطان يكمن في التفاصيل. يطل علينا من بين السطور. يختبئ بين الكلمات. يتقافز بينها. يوشوش في أذن الأولى لتولد التالية وهلم جرا. كل وشوشة تخلق وجودا. تضيف كلمة واحدة. لكنها في تراصها توجد كيانا كاملا. مكتملا.

لا ينقصه إلا روحا لتدب فيه الحياة. نَسَجَ السطور والصفحات فصَنَعَ مجالا واسعا للاختباء. للتستر. التفاصيل كثيرة، ولذا كانت المصيبة عظيمة.

- المصيبة؟ أي مصيبة؟

- أفلا تزيل الغموض عن أقوالك وتبين لنا ما عجزنا عن فهمه وماغفلنا عنه؟

- يا سادة يا كرام دعوني أُبِرْز لكم الطريق وأهدكم إلى أصل الرواية. لكن اعلموا أن ما دُبِّر لنا وما وقعنا فيه ما هو إلا تدبير مُحكم من عقل شيطاني.

فاصغوا إليَّ وانتبهوا فإن في كلامي عجبًا وقصصًا من عوالم الخيال.

لكن يا سادة يا كرام قبل أن نخوض في الحكاية، صلوا على طه الرسول.

أول الخيط

اعلموا يا أفاضل أن أول النهر نقطة، وبداية المشوار خطوة. وأن الإيعاز هو ما يمنح الشجاعة. يوفر الثقة. الثقة في المغامرة والتجربة. في اتخاذ الخطوات الإضافية. في فهم أن الخطوة تلو الأخرى - لو كانت في ذات الاتجاه - حتما ستؤدي إلى نتيجة. لكن أي نتيجة؟ أين هي الوجهة؟ تحديدها يحتاج إلى تدبير. إلى حكمة وتدبر.

دعونا إذن نزعم أن الرجل لم يكن بالغباء الذي افترضناه. كان ولا شك به ولو قدر ضئيل من الذكاء. لعله لم يظهر في البدايات. لكن مع ظهور تبلدنا وعجزنا، استغل الموقف ووظفه لصالحه.

لنسلم إذن بأننا من يلام؛ لأنه لولا تساهلنا وغفلتنا ما كان له أن يفعل بنا ما فعل.

ستسألوني حتما عما فعل. أقول لكم تمهلوا . فالإجابة آتية. لكن اعلموا واعوا أنه بدون المقدمات الممهدات لن تدركوا حجم

التخطيط والتدبير الذي أعمله الرجل للوصول بنا إلى نقطة التحول هذه. نقطة فاصلة قلبت الموازين كلها.

اصبروا إذًا وستجدوا بعون الله كل أسئلتكم مجابة. أما وقد بلغتم أولى الغايات – ألا وهي الصبر – دعوني أستفِض في الوسائل التي اتبعها ودبرها.

سموا إذًا باسم مالك الملك.

أول التدابير

بعد طيب السلام، أدركوا يا سادة يا كرام أنه في يوم من الأيام كان الحاكم التمام. وجد نفسه في سدة الحكم دون أن يأتيه في المنام أية أحلام أو حتى أية آمال بالجلوس على كرسي المسئولية. لعلها دعوة والدته التي أتت به إلى هذا المقام. أو كانت صدفة ألقت به في المكان والزمان المناسبين. أو لعله كان حلما أو إلهاما أصاب أهل السياسة والقرار لاختياره دونا عن باقي الناس، أو كان تدبيرًا محكما ليعتلي هذا المنصب. لا نعلم.

خلاصة الكلام : جاء والسلام.

حكم بالعدل وبادر بالرفق والإنصات. كد واجتهد لرد الجميل لأي كان الذي منحه فرصة الجلوس. فرصة الأمر والنهي في سائر الأمور. لكن إتماما للحق، وإنصافا للرجل، فهو لم يأمر وينه بلا أي سند. كان يبحث في شتى أمور الحكم وسائر المشكلات. يتباحث مع أهل المشورة ليصل إلى أحكم وأعدل الحلول. أَحَبَّه القوم

وزادوه دعاءً من بعد دعاء. استقر له إذًا الأمر.استتب الحكم في عصر من أزهى العصور. أو هكذا بدأت الأمور.

لكن يا سادة، وكما تعلمون، فإن دوام الحال من المحال. وكيف يستمر الحال على ما هو عليه والإنسان هو الإنسان؟ ابن آدم الذي كان هانئًا في جنة ما بعدها جنة. التفَّت الحية من حوله وألهمته أن يتمرد ليتذوق مما حرَّمه الرحمن عليه. لم يحرمه ظلمًا وطغيانًا. إطلاقًا. بل تهذيبًا وامتحانًا. فكان التمرد الذي قصه علينا آباؤنا وأجدادنا من قبلهم. فتذوق المحرم. ومن ساعتها وهو في حالة تمرد مستمرة. تمرد على كل النعم والخيرات. لا يعرف الراحة قط. فما بالكم بصاحبنا وقد ملك الحب والسلطة؟ ملك الأمر والنهي. القصور والممتلكات. وعلى الرغم من كل ذلك لم يهدأ.

وكيف يهدأ وأبوالخليقة آدم قد طُرِدَ من جنته؟ لم يكتفِ بما حوت من نعيم ورغد وخالف ربه. كيف يهدأ وهو منفي في أرض الله الواسعة، يهيم فيها تائها باحثا عن ملمح لجنته التي ضل طريقها، باحثا عن درب يؤدي به إلى جنة، أي جنة وإن لم يجدها فسيحاول إيجادها سواء في عقله فتصيبه لوثة، أو ببنائها فيغتر ويرى في نفسه قوة الخالق والعياذ بالله.

كُتب عليه إذًا -كما كُتب على سائر بني آدم - التيه في صحراء ضل فيها موسى وغيره من المغامرين ومدّعي الاكتشاف. كُتب عليه

البحث الدائم عن الدرب، عن الخلاص... سيخطئون جميعًا، سيبحثون عن طريق في الأرض، طريق خارج حدود جسدهم في حين أن الطريق الدال، الطريق الموصل يحملونه معهم. يسير معهم وفيهم، يتجول، يراقب، يطول مع نمو اليأس ويقصر مع زيادة الحكمة والثقة، مع الوثوق فيما هو أبعد من ذكاء البشر والتسليم بأن الإنسان مهما بلغ من حدود فإن خلاصه لا يكون إلا باكتشاف ذاته أولا. سيبحثون عن علامات في الأرض، عن دلائل تركها لهم الأولون في حين أن الطريق مسطور منذ لحظة ميلادهم.

كُتِبَ عليه البحث الدائم وما أن يدرك حقيقة الأمور حتى تكون ساعته قد حانت لتخبره أنه كان أخرق وأنه تأخر كثيرا.



السلطان

حلم مزعج

استيقظ ذات يوم على حلم مزعج. أقلق منامه. أسقطه من فراشه. أحس ببؤس المصير. نادى على حاشيته. ألبسوه في عجالة. أوفدوا له نائب السلطنة.

- خير يا مولانا. أراك مهمومًا.

- كابوس يا نائبي.. كابوس فظيع.

- هدئ من روعك يا مولانا. ما هو إلا حلم مزعج سيزول بعد حمام وتكبيس.

- لا يا نائبي الغبي. إن في هذا الشأن ما هو أعظم وأخطر من هذا. آتني حالا بضارب الرمال ومفسر الأحلام.

- أفلا تطلع كاتم أسرارك على ما أزعجك أولا؟

- آتني بمفسر الأحلام!

- أمرك يا مولاي.

دخل..

رأى السلطان ما لم يتوقعه إطلاقًا. لم يكن كهلًا أو حتى شيخًا.. بل كان غلامًا لم يبلغ مبلغ الرجال.

- أي مزحة هذه؟

قالها السلطان بغضب واضح وتعبيرات وجهه جامدة، مقطبة.

- عفوا يا مولاي، هذا أفضل مفسري أحلام البلاد.

- هذا الصبي؟ أتستهزئ بي؟

- معاذ الله يا مولاي. لكنه الأمهر بشهادة شيوخ المهنة.

- تعالَ يا فتى... اقترب.

حدجه الملك بنظرة متفحصة. صبي في الثانية عشرة من عمره. متواضع الملبس. رائق النظرات. أشعث الشعر. عيناه بحر أسود مفعم بالغموض والطاقة، هادئتان، تبحر فيهما السفن بيسر. يسر لا ينتقصه قلق وتحوط. قلق مما تحويه الأعماق من أسرار.

- أمرك يا مولانا.

- كيف لصبي مثلك أن يفسر الأحلام؟ وكيف لك أن تكون أفضل من شيوخ المهنة؟

- هذه نعمة من عند الله وحكمة تعلمتها من أجدادي والسلف الصالح. لكني تميزت فيها لذات السبب الذي فاجأك يا مولاي. ذلكم أن الأحلام في الأغلب ما هي إلا رؤى طفولية، تحوي من الصور ما لا يراه إلا الصغار، و فيها من الخيال ما لا يعرف البالغون وصوله، وتضرب جذورها في أعماق ذكريات الطفولة. فما أن يبلغ المرء مبلغ الرجال يا حاكمنا الجليل، حتى تزين له الحياة أن العقل هو أثمن ما أنعم الله به على الإنسان؛ فالعقل هو، مما لا شك فيه، نعمة ميز الله بها الإنسان عن الحيوان. إلا أن الإنسان كعادته لا يعرف الاتزان، فيرمي ببراءة طفولته رمي الكلاب ويَئِدُ مع نضوجه كل سمات هذه المرحلة من خيال صبياني وسذاجة، فيرجح العقل ولا يعمل الخيال إلا قليلا، ومع الاعتياد، يتوه الخيال عنه.

ولكنني، كما ترى يا مولاي، صبي. أعمل خيالي وآرائي الصبيانية بالإضافة إلى حكمة الأجداد. فتتراءى لي الصور بشكل أكثر وضوحا وأقرب لحالة الحالم حينما تأتيه رؤية.

- هذا كلام مثير فعلا. هيا لا تُضع وقتي ولنبدأ حالا.

- عفوا يا مولاي.. لكن هذا أمر لا يستقيم؛ فلا يجوز تفسير أحلام بدون الإلمام بما هي الرؤية ومن أين تنبع، فبدون الأصل لا يفهم الفرع.

فإذا سمح لي مولاي أن أستسمحه في أن يقص عليَّ بعض الأمور.

- و ما هي تلك الأمور التي تريد أن تستقصي عنها يا فتى؟

- يا مولانا السلطان، لا يخفى عنك طبعا أن الأحلام والمنغصات من الرؤى ما هي إلا تنفيس العقل عما يشغله طوال اليوم حتى وإن كان يفرّج عنه المرء بأي طريقة كانت. ولكن في واقع الأمور يا مولانا أن العقل يبقى مهموما بمشاغله إلى أن يخلد المرء إلى النوم. فإذا كان النوم، أصبحت الفرصة مهيأة للعقل للتنفيس عما يشغله ويؤرقه، فيبدع في عمل التصاوير والرؤى التي تتحول إلى حياة في أقرب لحظة للإنسان إلى الموت. فتخرج الصور لتتمايل وتتهادى وتنطق في مخيلتنا حتى نظن أنها حقيقية نكاد نلمسها. وأما الصور يا مولانا فما هي إلا تنفيس عن كل ما يرهقنا وهي في الواقع أمور حقيقية حدثت بالفعل، بها تأثرنا وتفاعلنا ولذا تركت أثرا ليس بالهين علينا فاختزنه العقل. وما أن يتم استثارة هذه البقعة من الذاكرة بحدث مشابه، حتى يفرز العقل كل محتوياته ويعيد رسم الصور على شكل أحلام، ويعيد علينا مخاوفنا.

الحلم يا مولانا السلطان كالنور ينبع من ألم وعنف. فنور النهار يأتينا من شمس تحرق نفسها وتعذب ذاتها بلهيب قلبها

ولسعة أذرعها التي تمدها إلى الأرض. كذلك ضوء القمر، فما هو إلا امتداد أذرع الشمس إلى جسمه. نستمتع بعذاب جسد القمر ونمتع ناظرينا بجلده المحترق الذي يتمثل لنا في شكل ضوء أبيض، رقراق، صاف.

- ولكني لا أفهم المغزى من كلامك.

- المغزى يا مولانا أنك تحمل في جوفك تاريخ مخاوف لا تعبر عنها، وهذه المخاوف بدأت تحاصرك وتحاول أن تخفف من حدتها وضغطها المستمر على عقلك الذي أعياه هذا الحمل، فبدأت في الخروج على شكل رؤى وكوابيس، وما أريد أن أتوصل إليه يا مولانا السلطان - إن سمحت بالطبع - هو أن تطلق مخاوفك وتحدثني بها وألا تخفي شيئًا عني حتى أستطيع أن أفسر لك - في ظل ما سوف تقصه عليَّ - المعاني التي تلاحقك.

- أفهم من كلامك أنك لا تستطيع تفسير أحلامي إلا إذا عرفت ما يؤرقني في حياتي اليومية؟

- هذا صحيح يا مولاي.

- هل تعلم أنك بذلك تطلب مني أن تدخل عقلي وقلبي لأفتح لك بابهما على مصراعيهما فتُلِم بكل كبيرة وصغيرة في جسدي؟

- أنا مدرك ذلك تماما يا مولانا السلطان.

- إذًا يجب أن تفهم أنك ستفتح لنفسك بابا من أبواب جهنم إذا نطقت بكلمة واحدة مما سأحكيه لك. لن أقتلك، لا... بل سأعذبك ببطء شديد لتندم على كل حرف رددته عني. هل فهمت؟

ابتلع الفتى ريقه واشتعل وجهه احمرارا وجرت رعشة في ظهره تسمر على إثرها. أدرك ساعتها أن كل ما كان يقال عن السلطان وجبروته وظلمه لم يكن محض افتراء وإنما حقيقة جلية متجسدة أمام ناظريه. تيقن أنه في ورطة لا مفر منها، فإما أن يقبل شرط السلطان ويستمع إلى ما يقصه عليه دون أن ينطق ببنت شفة أو أن ينسحب من مجلس السلطان. ولكن هل كان السلطان ليتركه يخرج من عرينه كما دخله؟ أم كان ليجرّسه ويفضحه أيّما فضيحة في المدينة أجمع؟ كان الموقف حرجا ولا مخرج منه.

- فهمت يا مولانا السلطان وإنني أتعهد إليك بأن أصون السر وأحفظه إلى آخر يوم في عمري.

- فليكن. اتخذ لنفسك إذًا مجلسا حتى تستمع إلى القصة حيث أن سردها سيطول ...

قصة السلطان

- ولدت ونشأت في بلاد القفجاق[1]، أرض شاسعة يحدوها البحر في الجنوب الغربي وسهول لا نهاية لها من الشرق تمتد حتى بلاد تطل فيها الشمس على أراض بيضاء واسعة تمتد إلى حد البصر. وكانت أراضينا مزدانة بخيام لا حصر لها تلمع تحت أشعة الشمس بلون ذهبي من فرط لمعانه تحسبها سبائك من ذهب خالص، وعرفت قبيلتنا بسبب لون خيامنا باسم القبيلة الذهبية.

كانت هذه البلاد هي ما منحها جنكيز خان قبل وفاته إلى نجله الأكبر جوشي، وعاشت فيها القبيلة سنوات طوال سادتها الحرب الضروس بين مغول القفجاق ومغول فارس، ولذا نشأ أبناء القبيلة منذ صغرهم نشأة عسكرية وتربوا على الشجاعة والإقدام والقوة والجلد وخرج منهم فرسان يذكرهم التاريخ إلى يومنا هذا.

---

(1) القفجاق: اسم يطلق على المغول الذين أقاموا في البلاد التي منحها جنكيز خان إلى ابنه الأكبر جوشي وتشمل سهول جنوب روسيا وأقصى غرب آسيا وسيبريا فيما بين نهر آتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين.

بعد وفاة جوشي، انقسمت البلاد بين أبنائه الأربعة عشر وانقسمت القبيلة إلى قبائل عدة ما بين بيضاء وزرقاء كل تتبع ابنًا من الأبناء. واعتنق بركة خان ابن ناظو خان نجل جوشي الإسلام وأرساه دينا رسميا للدولة وتحالف مع المماليك في مصر ضد مغول فارس بزعامة هولاكو نظرا لما بين مغول القفجاق ومغول الفرس من صراعات مستمرة على الأرض وعلى زعامتهم للمغول.

كنا إذًا كأطفال نُربَّى تربية المحاربين لنصرة قبيلتنا في وجه الأعداء ولبسط سيطرة قبيلتنا على أكبر مساحة من البلاد. وكان نتيجة الصراعات والحروب المستمرة الدائرة في البلاد أن يقع الكثير من المحاربين في الأسر، ودخل الكثير من أبناء القبيلة في أسواق النخاسة وبيعوا في مصر وخدموا في قصور السلاطين المماليك أو عند أحد أمرائهم. وقد وصلتنا سير الكثير منهم وما تبوؤه من مناصب وما أصابهم من جاه وعز. وكنا في صبانا نسمع هذه الحكايات عن أبناء جلدتنا والنجاح الذي حققوه في مصر فتعمل في مخيلاتنا الأحلام والأمل في أن يصيبنا مثل هذا النجاح. وكانت فكرة الوصول إلى حكم أكبر بلد إسلامي وحضارة من أعظم حضارات التاريخ تستهويني وتسيطر عليَّ إلى حد كبير. حتى كان يوم أتجاذب فيه أطراف الحديث مع صديقي ورفيقي في التدريبات العسكرية وأعلن لي أنه ينوي الهروب إلى مصر ليصيبه من الحظ ما

أصاب الأسبقين من أبناء قبيلتنا. وكان قد خطط لكل شيء بإتقان ودقة شديدين. ونظرا لما يربطنا من ود ومحبة فقد عرض عليَّ أن أرافقه في هذه الرحلة الطموح ووافقت على الفور.

كان موعدنا فجر اليوم التالي، قبل بزوغ الشمس وإلقاء أشعتها على الخيام الذهبية. كان الموعد وكانت الرحلة. امتطينا ظهور خيولنا وتوغلنا عبر السهول الممتدة، سهول منبسطة وخضراء تخترقها أنهار وتكسوها الأشجار.

كنا نركب صباحا إلى أن تنتصف الشمس السماء فنستريح تحت شجرة أو بالقرب من نهر ثم نستأنف الركوب إلى أن تهبط الشمس وتتلون السماء بألوان شتى ثم نبدأ في رحلة البحث عن مكان ننام فيه. كنا طوال المسيرة نتساءل عما يحدث في بلادنا وفي قبيلتنا وما كان رد فعلهم حين أدركوا أننا قد هربنا وإن كانوا أرسلوا من يبحث عنا أم لا... كانت أسئلة كثيرة تنتقل بيننا ما بين فضول وندم على الفراق.

وفي يوم من الأيام، وبينما نحن مستلقيان تحت فروع شجرة وارفة، نستظل بظلها ونرتاح من عناء الركوب، إذ بنا نستيقظ على وخز رمح في جنبينا. استيقظنا غير مدركين ما كان يحدث وإذ بنا نرى مجموعة من الفرسان على ظهور خيول صهباء ممشوقة القوام، قوية البنيان... فرسان أشداء حاملين الرماح. كانوا قد شكلوا نصف

دائرة من حولنا، وامتشقوا سيوفهم مستعدين للانقضاض علينا في حال قمنا بأي تحرك ينم عن عداء.

أدركت بسرعة أننا وقعنا في الأسر لا محالة وأن أية محاولة للتصدي أو للفرار ستؤدي إلى ملاقاة حتفي...

لكن صديقي لم يحتمل فكرة الأسر على ما يبدو، وقف على قدميه وبادر بوضع يده اليمنى على مقبض سيفه الذي كان في غِمده حتى كان رمحا من الرماح المصوبة نحونا قد اخترق صدره وسقط جثة هامدة في لحظتها.

كان الأمر قد حسم إذًا، ألقيت بسيفي بعيدا وسلمت نفسي إلى مصير أجهله. نزل أحدهم من على فرسه، ربط حبلا حول معصمي وكاحلي، وسحب خيلي وربطه في سرج خيله. تحركت القافلة وأنا مجرور خلفها في مشهد مهين وكأني عبد هارب من سيده ويتم اقتياده لتنفيذ حكم الجلد في حقه.

بقينا على هذا الحال أياما لا أعلم عددها، كانت قواي قد خارت وكنت بالكاد أمشي. كنت أقرب للزحف من المشي في واقع الأمر وكانت معاملتهم جافة جدا. كانوا يلقون لي بفتات أكلهم ويضربونني إذا ما تلكأت أو تأخرت في المشي وكان السوط هو آلة الردع الحاسمة حتى بلغ الأمر مني أن جسدي لم يخلُ من علامات ضرب بالسوط حتى وصلنا في يوم من الأيام إلى سوق

تعـج بالنـاس، فيها مـن المعروضات والسلع من كـل صنف ونوع. كان فيها حرائر من الصين وبخور وتوابل من الهند وأقمشـة وطعام وعروض شـتى ... اخترق الفرسـان السوق بثقة من يعرف المكان معرفـة تامـة وكانوا لا يلتفتـون إلى أي ممـا حولهم وكأنمـا لديهم هـدف محـدد. وما كانت إلا لحظات حتى جاءني الرد عن الأسـئلة التي كانت تجول ببالي...

كنا نتوجه إلى سوق النخاسة... لقد انتهى أمري وسيتم بيعي لأكون خادما عند سيد ظالم يهينني ويعذبني ويجلدني في حال عصياني لأوامره. سأتحول إذًا من فارس محارب إلى عبد ذليل، خادم منكسر لا كرامة له ولا سطوة. كانت بوادر السوق قد لاحت وتبدل المظهر من سوق تنبض بها الحياة وتزخر بألوان السلع وأصوات الباعة والشارين إلى مشهد كئيب، حزين، لا صوت فيه ولا ألوان، عبيد مقيدون بحبال أو أغلال من أيديهم وأرجلهم وجيدهم. يُجَرّون إلى منصة خشبية تعلو عن سطح الأرض بعدة درجات تكفي لتكون البضاعة المعروضة مرئية لكل من في السوق. كان المشترون يقتربون، يصعدون المنصة، يلمسون العبد، يفتحون فمه، يفحصون أسنانه، عضلات ذراعه، أصابعه، يقلبون فيه ذات اليمين وذات اليسار.

وفي ركن قصي كانت الإماء تعرض بطريقة تكاد تكون مشابهة. وفـي خضم انشـغالي بمظاهر هذه السوق ومرتاديهـا، إذ بي أُجذَب

مـن ذراعـي وأُجبَـر علـى صعـود الدرجـات الثـلاث إلـى المنصة الخشـبية وبدأ الفارس الذي يقتادني يتحـدث بصوت عال، خمنت أنه يصف بضاعته لجذب المشـترين ... ما أن انتهى من كلامه حتى دبت الحركة في المكان وصعد من صعد وبدأوا في تقليبي وفحصي كمن يشـتري قطعة قمـاش ويحاول التأكد مـن خلوها من العيوب. نـزل البعـض منهم بغير اكتـراث وكأن البضاعة لـم ترقهم، في حين بقي حفنة منهم علـى المنصة وبدأ المزاد. كانوا يتصايحون ويعلون مـن صوتهـم متبارزين فيما بينهم، كل يحـاول أن ينال البضاعة التي تروقه بأعلى سـعر ليضمن ألا ينافسه مشتر آخر على نفس البضاعة. كـان الفـارس محنكا فيمـا يتضح وكـان يشـعل المنافسـة فيما بين المشـترين. اسـتمر الجدال والمناقشـة وبدأ المشـترون الواحد تلو الآخر ينسحبون من المنصة إلى أن اسـتقر الأمر على رجل ملامحه عربيـة، يرتدي ملابس لـم أعهدها من قبل، لكنه كان حسن الملبس، نظيف المظهر، هادئ الطباع، يتحدث بهدوء ولين. أخرج من جعبته سرة من النقود ألقى بها إلى الفارس الذي أدار عملية البيع ثم التفت إليَّ وأمسكني من معصمي وقادني وخادما له إلى عربة يجرها خيل. جلست في مؤخرة العربـة في حين ركب الخادم والسيد العربي في المقدمة وانطلق الحصان على الطريق إلى المجهول.

استمر ركوبنا أياما لا حصر لها. تقدمنا على طرق طويلة ومتعرجة، صاعدة وهابطة، مررنا بوديان وجبال، بأراض مقفرة وأخرى تنبض فيها الحياة البرية والخضرة، تسقيها الأنهار تارة وتشتد الشمس فيها تارة فيشح الماء ويصيبنا العطش ويحلق الموت فوق رؤوسنا. وفي كل ذلك أرتج في العربة لا حول لي ولا قوة، لا أعرف أين أتوجه ولا يحادثني أحد.

وبعد رحلة طويلة ومشقة والوقوف في عدة محطات لنرتاح فيها وننام ليلة نستأنف بعدها الطريق، دخلنا إلى مدينة ليست كسائر المدن، عظيمة البوابات، زاخرة الأسواق، كثيرة المآذن، كل شيء فيها يسير بنظام متقن يوحي بعظمة البلاد وقوة الحاكم. كنا قد وصلنا القاهرة، المدينة ذات النفوذ والقوة، المدينة التي خرجت منها الجيوش تصد الزحف الصليبي والعدو الطبيعي لمغول بلاد فارس...

لم أصدق أنني كنت قد وصلت وجهتي، القاهرة التي كان هروبي من دياري من أجل الوصول إليها، مدينة المماليك، مدينة الجاه والسلطة، ترى هل يتحقق حلمي بالوصول إلى سدة الحكم يوما وأسيطر على أقوى دولة إسلامية في وقتها؟ ذلك كان الهدف ولكن قبل أن أعمل من أجله، يجب عليَّ أولا أن أعرف ما هو مصيري.

عبر الرجل، الذي عرفت فيما بعد أنه نَخَّاس[1] يقوم بجلب الرقيق والمماليك لسلطان مصر، خُطًّا طويلا ومستقيما تحفه الأسواق والباعة من الجانبين وتزينه قباب ومآذن ضخمة لم أر في جمالها وعظمتها مثيلا. كانت أبنية توحي بالقوة والسيطرة، بالسلطة والغنى، أبنية تلخص عظمة هذه الدولة التي طالما سمعت عنها الأساطير في طفولتي، كانت قصصا تأسر الألباب وها أنا أعيشها، صحيح في وضع مهين ولكني أرى هذه المدينة العظيمة وأعيش قصص أمراء وسلاطين المماليك الذين جاءوا مثلي مكبلي الأيدي والأرجل ثم أصبحوا مع الوقت أعظم حكام الإسلام في تاريخهم. هل تراني أكون على نفس درب العظمة والقوة؟ أم تراني أنتهي عبدا ذليلا أو خادما خصيًّا؟ ماذا يحمل الزمن لي؟ وماذا تحمل هذه المدينة من مفاجآت؟

كانت الألوان الزاهية والأشخاص يمرون بي أثناء اختراقنا طرقات وأسواق المدينة. جلبة المنادين والباعة الجائلين، استعراض للأزياء والألوان، بضائع من شتى أرجاء العالم من بلاد الهند وما وراء النهرين، من بلاد الفرنجة ومن أراض أخرى لم تطأها الأقدام. اخترقنا الخُط الطويل حتى وصلنا إلى بوابة ضخمة للمدينة، محصورة بين برجين دائريين يربط بينهما جسر يعلو البوابة الخشبية الضخمة. ويعتلي البرجين مئذنتان متطابقتان. وقد علمت فيما بعد أن هذه البوابة قد شهدت شنق رسل هولاكو

(1) النخاس: تاجر عبيد.

إلـى سـلطان مصر وهـي نفس البوابة التي شـهدت حـوادث صلب وتوسـيط[1] العديـد مـن المماليـك واللصـوص وبائعـي الخمـور والحشـيش والعاهـرات وعلقت عليهـا رؤوس لا حصـر لها وكان النـاس يتجمعون فـي هذه المناسـبات للفرجة. كما أن هـذه البوابة كانت بمثابة البوابة الرئيسية لموكب سـلطان البلاد، فهي التي كانت عندها تبدأ مواكب السلطان أثناء عودته وتنتهي أثناء خروجه. كنا إذًا نسير على درب السلطان. تجاوزنا البوابة المهيبة وبدأنا في الصعود إلى قلعة على مرمى النظر.

كان هذا إذًا هو مركز الحكم ومجلس السلطان في مصر، مركز القوة في المحيط الإسلامي، مركز الحضارة الضاربة الجذور، تمتد آلاف السنين في عمر هذا العالم القديم منه والحالي. أدركت ساعتها أنه قد تم شرائي من أجل عرضي على السلطان أو أحد أمرائه لأكون مملوكا لواحد منهم، فهل يتحقق الحلم وأبدأ رحلة صعود نجمي؟

كان هذا إذًا نخاس السلطان؟ أو لعله نخاس أحد كبار الأمراء المماليك؟

توجهنا إلى القلعة عبر طريق صاعد وملتوٍ، مررنا بأسواق وحوانيت أقل شأنا من تلك التي كنا تركناها خلفنا حتى وصلنا

(1) التوسيط: أسلوب معاقبة للمخالفين والمجرمين يقتضي تعليق المجرم على بوابة وفصل نصفه الأسفل عن الأعلى عند منطقة الوسط بالسيف وإبقاء النصف الأعلى معلقا على البوابة عدة أيام ليتعظ الناس.

إلى الرميلة[1] ومنها توجهنا إلى باب السلسلة المفضي إلى مركز الحكم في مصر. كان الباب قريب الشبه بالباب الذي دخلنا منه إلى القاهرة - والذي عرفت فيما بعد أن اسمه باب الفتوح - وباب زويلة، فهو مثلهما مكون من برجين دائريين يحيطان بالبوابة الأشهر في البلاد. البوابة التي من خلفها تدار شئون البلاد وخلفها تقبع كل مفاتيح الحكم وقادة الجيوش. خلف هذا الباب الضخم عالم غير هذا الذي قدمنا منه، عالم الجاه والسلطة مغايرا لعالم العوام. عالم رفاهية وترف لا علاقة له بعالم الكد والكدح، المعاناة والتعب، عالم الاقتتال فيه للبقاء على قيد الحياة في حين الاقتتال خلف هذا الباب من أجل السيطرة والهيمنة، من أجل كنز الأموال والخيرات...

لا عجب إذًا أن القلعة يكون موقعها أعلى من المدينة...

فُتِحَ لنا الباب ودخلنا القلعة. كان أول ما رأيته باحة فسيحة يقع خلفها مساجد وقصور وأبنية قليلة الارتفاع. كان جنود مختلفة الأشكال والألوان تمر بنا حتى أنني ظننت أننا انتقلنا عبر باب سحري إلى مدينة أخرى، مدينة أشبه بموطني وبلد نشأتي. عجبا لهذا البلد المليء بالتناقضات، عدة شعوب في حيز واحد ضيق، أجناس وأعراق متباينة، أزياء شديدة التنوع والتباين، فقر مدقع وغنى فاحش... كيف تستقيم هذه الدولة وكيف تتماسك؟

(1) الرميلة: ميدان القلعة الحالي.

مثلت بين يدي السلطان وقبلت الأرض، حدجني بنظرة سريعة وهز رأسه في استحسان وأمر بجزل الأجر للنخاس. توارى النخاس منحنيا للسلطان وخارجا بظهره من باب قاعة الحكم الكبرى. ثم جاءني طواشي[1] واصطحبني، فقام طبيب بفحصي بدنيًّا ثم تم اصطحابي إلى طباق كان فيه الكثير من أبناء جنسي. كان قد تحدد لي جامكية[2] وحصة مأكل ومشرب شهريًّا. ثم بدأت في الخروج إلى لعب الرمح والنشاب[3] وركوب الخيل حتى تفوقت على سائر رفقائي لما كان لدي من طموح في الوصول إلى أعلى المناصب وتحقيق حلم طفولتي. نقلت بعدها إلى الخدمة وتدرجت في المناصب إلى أن صرت أمير خمسة[4] ثم عشرة[5] ثم أمير طبلخانة[6] حتى وصلت إلى منصب كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري[7]، وحينئذ كنت من الغنى والسلطة ما

(1) الطواشي: خصي من خصيان السلطان كان يتسلم المماليك الجدد ويوصلهم لمقر إقامتهم.
(2) جامكية: أجر المملوك.
(3) النشاب: النبل.
(4) أمير خمسة: أمير تحت إمرته خمسة فرسان. أمير من الطبقة الرابعة وهي أقل درجات الإمارة وتوازي درجة كبار الأجناد.
(5) أمير عشرة : أمير تحت إمرته عشرة فرسان وأحيانًا عشرين. أمير من الطبقة الثالثة. منهم يكون صغار الولاة وأرباب الوظائف.
(6) أمير طبلخانة: أمير تدق الطبول والأبواق على أبوابه.
(7) كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري: نائب السلطنة.

منحني القدرة على التخلص من السلطان الذي كان حكمه قد وهن وشاخ حتى صار غير قادر على تسيير دفة الأمور فانقضضت عليه واستوليت على الحكم وأمرت بقطع رأسه وتعليقها على باب السلسلة بعد تجريسه في شوارع القاهرة على مرأى ومسمع من العوام وكافة مماليك السلطنة.

وفُتِحَت لي خزائن السلطنة أجمع، وكثرت الإقطاعات لديَّ وصرت من الغنى والسطوة ما لم أحلم به في حياتي من قبل. وهكذا حققت حلم طفولتي بأن أكون على رأس أقوى وأكبر دولة إسلامية...

و ها أنا ذا بعد بسط سيطرتي وإحكام سلطتي أجد نفسي في موقع لا أحسد عليه. فلقد تعودت في حياتي كمملوك أن أتوقع الغدر والخيانة من رفقائي وأمرائي في أي لحظة وكنت قد أصبحت محنكا في تدبير المكائد والمصائب وكونت جيشا من البصاصين الذين يأتمرون بأمري مباشرة. كانوا بمثابة عيون وآذان لي في كل أرجاء السلطنة، يحيطوني علما بدبيب النمل قبل أن يحدث ولذا تفوقت عليهم بسلاح استحدثته وطورته لدرجة أنه استحال عليهم التخلص مني. ولكني الآن أمام قوة لم أعهدها ولم أتحسب لها، قوة الرعية، قوة العوام الذين لم أعمل على تأمين نفسي ضد خطرهم. فقد كثرت التقارير في الآونة الأخيرة عن وجود مخطط للإطاحة بي من قِبَلِهم، فأخبرني كيف السبيل؟

ظهور الأحلام

كانت الأخبار تأتيه على مدار شهور طوال بشيوع ظاهرة الأحلام التي تأتي أهل قرى ومدن السلطنة. كثر الحديث عن الرؤى وما تحمله من بشائر الأمل في حياة مبهجة.

لم ينزعج الحاكم في بادئ الأمر. ظن أنه شأن محصور ولن يدوم إلا وقتا يسيرا ثم ينصرف الناس إلى همومهم وأشغالهم. إلا أن الظاهرة لم تتوقف. أصبحت نسيجا معقدا ومتشابكا تترابط فيه الخيوط فتتماسك. لا تجدي محاولات حلها بالطرق التقليدية. لذا كان لا بد من تمزيق هذه الشبكة العنكبوتية من الأحلام المتداخلة والمترابطة. لا بد من القضاء عليها نهائيا.

لم يكن هذا وحده كافيا. بل كان يجب منع تكرار هذه الظاهرة. إن أقل بارقة أمل كفيلة بإحداث فتنة عظيمة تهدد العرش وتنذر بسوء المنقلب.

الأحلام تتشابه في طبيعتها والجرذان. فما أن يتواجد زوج منهما حتى يبدأ التناسل والتكاثر بمعدلات لا يمكن إحكام السيطرة عليها. وإذا خرجت الأمور عن السيطرة، سادت الجرذان وتجرأت على الأسياد. توغلت في ممالكهم وهاجمت محاصيلهم. أتت على الأخضر واليابس إلى أن تشبع جوعها وحرمانها.

كذلك الأحلام. ما أن يولد حلم حتى يتكاثر. ثم تكون المرحلة الأصعب والأخطر. رغبة تحقيق الحلم بعدما تم تصديقه.

- وهنا يا نائبي العزيز مكمن الخطورة الحقيقية؛ لذا لا بد من إيجاد حل جذري للقضاء على أصل الظاهرة. ليست الظاهرة نفسها.

- هل نقضي على الرعية يا مولاي؟ قالها النائب بتعجب شديد.

- لا يا عزيزي..إنما أفكر فيما هو أدهى من ذلك.. لكن كيف التدبير؟ كيف التنفيذ؟ كيف تكون البداية؟

- أشركني في تفكيرك يا مولاي، فعقلان يتدبران خير من واحد في حيرة.

- أصبت يا عزيزي.. اسمع مني إذًا ما أفكر فيه.. الوضع كما أراه حاليًّا شديد التعقيد. لذا يجب التفكير والتشاور لمعرفة أصل المشكلة. من الواضح لنا جميعا أن ظاهرة الأحلام انتشرت إلى

حد خرج عن سيطرتنا؛ لذا يجب التدخل الفوري للقضاء على هذه الأحلام وما تحمله من مخططات للانقلاب على الحكم. الشأن الثاني هو أنه إذا تخلصنا من هذه الأحلام فما هو الضامن ألا تعود من جديد؟ حينئذ تعود أقوى وأشرس من سابقاتها. تكون أشد فتكا. يجب علينا إذًا إيجاد طريقة لمنع حدوثها من الأساس. لكن كيف؟ كيف؟

- إذا سمح لي مولانا السلطان أن أسدي له برأيي ...

- ...

- الوضع لا شك دقيق ويستلزم حسن التدبير والكثير من الدهاء.

فإذا ما أصدرنا مرسومًا يعاقب كل من يحلم، ثارت العباد وهاجت البلاد واضطربت الأوضاع حتى أصبحت البلاد مطمعًا للأعداء. لذا لا بد من الحسم في الأمر والتعامل معه بالشدة، لكن شدة غير معلنة، شدة يسمع عنها الجميع لكن لا يراها أحد. شدة لم يرها أي ممن يتناقلون هذه القصص المرعبة، قصص يشيب لها رأس الجنين في بطن أمه. قصص تتحول إلى أساطير، تنتقل من جيل إلى آخر، تضرب بها الأمثال في الهول والرعب، تحكى للأطفال ليطيعوا آباءهم. قصص يتناقلها الجميع كأنها واقع، كأنهم شهدوها بأنفسهم، لكن لا يستطيع نفر منهم أن يجزم إن كانت هذه القصة حقيقية أم مختلقة. قصص تتحول إلى عبرة لكل من سولت

له نفسه على نشر أو تناقل الأحلام، لكل من تجرأ على الحلم بنور الشمس، ببصيص أمل، لكل من يعتقد أنه يمكن الهروب من عالم واقعي إلى عالم آخر يجدون فيه السكينة، الأمن، الأمل.

يجب أن يفهم الناس أن عالمهم هو ما يمنحه سلطانهم لهم وعليهم أن يتقبلوا ما يُمنح لهم ولو كان فتاتًا وإلا ...

ستكون مهمتنا في المرحلة الأولى هي تكوين هذه القصص ووضع اللبنة الأولى لأسلوب التعامل ونشر الشائعات. شائعات تكون في بادئ الأمر مصدر توجس ومع انتشارها وتعدد ألوانها تتحقق الأسطورة، يساهم الناس في بنائها والتهويل من حجمها، التهويل لدرجة مساهمتهم في نشر الرعب في القلوب. حينئذ نكون قد نلنا المراد ونقضي على الأحلام.

لكن هذا أمر سوف يطول ويجب التمهل فيه حتى تترسخ القصص وتصير قناعات. أما الآن فيجب القضاء على الأحلام.

- لكن كيف؟

- هنا يا مولاي السلطان أخطر ما في الأمر. مولانا يعلم جيدا أنه يمتلك قوة غير صغيرة وليست بالهينة من البصاصين منتشرين في كافة أركان السلطنة، يعيشون بين الناس، يسامرونهم ويجاملونهم، يثق فيهم الناس لأنهم منهم... هؤلاء البصاصون يأتمرون بأمر متولي الحسبة ولا يتوانون لحظة واحدة في خدمة

مولانـا السلطـان. لـذا يا مولانـا أرى أنه مـن الحكمـة أن نستغل ولاء هـذا الجيش مـن البصاصيـن ليمدنا بالمعلومـات المطلوبة عـن مثيـري القلاقل في البـلاد ومروجي الأحـلام المربكة لنظام السلطنـة ولحكمكـم. ونتيجـة لتواجدهـم فـي حارات وأسـواق القاهـرة، فسيكـون من اليسير عليهم أن يقتفـوا أثر هؤلاء الزُّعر[1] فنقبض عليهم ونحكم عليهم بما يرتئيه مولانا السلطان.

و لنُفَعِّل هذا النشاط ننشئ جهازًا رفيع المستوى من خيرة رجال السلطنة وبصاصيها تكون مهمتهم رصد الأحلام ومطاردتها.

- مطاردة الأحلام؟

- نعـم يـا مـولاي، التخفـي والتنقـل بيـن النـاس، رصـد الأحـلام ومصادرها، معرفة من أين تنبع وكيف تتناقل. جهاز يتابع ويرصد ويصادر الأحلام فيَحُول دون انتشارها وتوغلها في السلطنة.

- كيف نصادر ونمنع ما لا نملك وما لا نمسك؟

- دعني أخبرك يا مولاي.. أول ما يتنامى إلى علم الجهاز أن حلمًا قد انتشر، نفتش عن مصدره، نمسك به، نحتجزه ونتعامل معه.

- كيف؟

(1) زعر: جمع كلمة أَزْعَر ومعناها سيئ الخلق.

- نمسك بحلمه، نقرأه ونحلله وإذا ما رأينا فيه مصدر تهديد، نسحبه منه ونصادره. ثم تأتي المرحلة الأهم : نستبدله بكابوس. كابوس يجعله ييأس من فكرة التغيير برمتها. ثم نقوم بنشر الكابوس بنفس الطريقة التي انتشرت بها الأحلام فتنتشر في نفس الوسط الذي يحلم بالتغيير فتوأد الفكرة قبل أن تشب.

- و لكن هذا سوف يقضي على أصل الحلم وليس مشتقاته اللاتي انتشرت بين الناس. فهل نتعامل مع من تناقلوا الحلم بنفس الأسلوب؟

- سؤال رائع يا مولاي، فهو ينم عن فهمك لتفاصيل الخطة بدقة شديدة. لا، لن نتعامل معهم بنفس الطريقة. فالحلم ليس حلمهم في الأساس وإنما حلم شخص آخر. ومن يحلمون بهذه المشتقات يكون إيمانهم بهذه الأحلام أضعف بكثير من صاحب الحلم الأصلي. لذا يكفي تخويفهم وأنا لي أساليبي في هذا الصدد ولكم مني وعد يا مولاي السلطان أن يتم تحجيم بل والقضاء على هذه الظاهرة المزعجة في خلال ثلاثين يوما ليس إلا.

- توكلنا على الله.

التحول

ولكن يبقى السؤال الأهم، كيف كان التحول؟ لماذا صار؟ وكيف لم يلحظه أحد؟

كيف لحاكم عادل أن يتحول ويتبدل حاله؟ كيف انعزل عن الناس وهم حصنه المنيع الذي ينأى عن كل فساد؟

لا يستطيع شخص أن يجزم متى بدأ التحول. لكن من المؤكد أنه لم يحدث ما بين ليلة وضحاها.كانت العملية طويلة وبطيئة. لكنها تم التخطيط لها بعناية ودقة فائقتين حتى لا تلفت الأنظار. بدأت التغيرات تطرأ على السلطان دون أن يلتفت إليها أحد.

لم يعرف السلطان نفسه أن فخا قد نصب له وبطبيعة الحال لم يتوصل إلى من نصبه له.

وكما كُتِبَ عليه البحث الأبدي عن الطريق، كُتِبَ علينا البحث الدائم عن أجوبة لأسئلة نختلقها في ثنايا عقولنا ضيقة الحدود،

واسعة الآفاق. خُلِقنا بها لنزداد حيرة ولتتشعب بنا السبل، لتزيد الاحتمالات ونتوه في دروب ضيقة غير مرئية لا يخرج منها إلى النور إلا من تحلى بالإيمان وبالثقة.

لماذا نتساءل عن الأسباب وعن الكيفيات؟ فيم سيفيد لو خبرنا؟ هل سيمنحنا تبريرا أجمل لغبائنا وسذاجتنا؟ سيقولون أن السلطة تعمي، وسيقال إن البطانة تزداد طمعا وسيُذكَر أن الرعية لا تستأهل من يقسط في الميزان ويعدل في الناس. ستسمعون كلاما شتى ولكنكم لن تسمعوا السبب الحقيقي.

هل تعلمون لماذا؟ لأن الحقيقة مُرّة، جارحة، بل مهينة.. الحقيقة لا يرغب في سماعها أحد لأنكم جميعا ترون في أنفسكم الكمال. نعم تعتقدون أنكم تستطيعون لأنكم قادرون.

أنا سأقول لكم ما لن يخبركم أحد به. سأخبركم بما لا تطيقوا سماعه رغم أنكم تعلمونه تمام العلم.

سأخبركم ولكن عليكم أولّا أن تسمعوا لتدركوا ثم تعوا ما حدث له ومن بعد ستدركون الحقيقة المؤلمة وستدركون ما هو أبعد من الحقيقة وما يليها. سأنطق الحروف الدامية حتى يغرز النصل إلى آخر مداه في صدوركم.

و لكن قبل أن ينطق لساني بتلك الحروف الصادمة، الجارحة، بل القاتلة، دعوني أذكركم بأن السلطان في زماننا هو من يخلق من الماضي حاضرا ومستقبلا، يبدل سير الأقدمين وذكرهم بذكر ذاته واسمه، يقصي أصحاب الأساطير من الوجود، ينزعهم من ماضيهم ويحرمهم من مستقبلهم، يتسلق على بطولاتهم وينسبها إلى نفسه فيوجد ماضيا يكون ركيزة لمستقبل أشد استبدادا من محو التاريخ ذاته.

كابوس سلطاني

- ألا وقد عرفت الآن يا مولانا تاريخك وقصتك وأصل الحكاية وما يؤرقك، فإنني الآن مؤهل وجاهز أن أستمع إلى كابوسك وأن أفسره بقدر استطاعتي في ضوء ما وضحته لي. تفضل إذًا يا مولانا السلطان وأنا كلي آذان صاغية.

- رأيت في منامي صورا غريبة. غير مفهومة معانيها. كان الحلم لعجبه وعدم تناسق صوره سببا في إقلاقي.

فلقد رأيت نفسي أصابني العمى وصرت أمشي متخبطا. ثم خرج عليَّ شاب من رعيتي. فأخذ يحملق في وجهي. وإذ به يلطمني لطمة شديدة على وجهي. فصدمت من فعلته هذه وارتبكت.

ثم شهر سيفا عظيما في وجهي. سيفا لا يشبه سيوف الدنيا.

وما أن علا السيف وتوسط السماء حتى ظهرت سحب حمراء كثيفة. ملأت السماء. كانت كئيبة المنظر. تتشاحن فيما بينها.

فنزل منها غيث كثير يسبح من كل جانب. يقطع الأشجار ويكبها في قصري.

ثم انقشعت السحب وتوسط القمر السماء. إلا أنه كان شديد الاختلاف عما عهدته. كان مظلما. شديد السواد. وإذ به يحتجب خلف السحاب. ثم لا يلبث أن تنضم إليه الشمس والنجوم. لكنهم كانوا بلا نور.

ثم تعود الشمس لتظهر متجاورة مع القمر. متقاربان. يظهران عن يميني وعن يساري. وفجأة ينشق القمر إلى شقين. وتتساقط عظام الكواكب على الأرض من السماء وتتلاشى. وزاد عليها بضع عشرات من صغار الكواكب.

فلما تكاثرت الصور وتلغزت المعاني وأحسست بالكدر قمت من نومي مفزوعًا وطلبت مفسرًا جسورًا ليفك لي طلاسم هذا الحلم.

هذا ما أتانا من أحلام وتسبب في اضطرابي في المنام. ولما كان انزعاجي من الشئون العظام، لجأت إليك في الحال لتفسر لنا ما لاح من معان.

- أشكر لك يا مولاي عظيم ثقتك ونبل خلقك وأثني عليكم حسن تدبيركم وسرعة قراركم في فك طلاسم ما جاءكم في المنام.

وقبل أن أبدأ بالتفسير يا مولاي أطلب منك أن تمنحني الأمان.

- منحتك إياه.

- عليك أن تعلم يا صاحب السمو أن الأحلام ما هي إلا انعكاس لما نبطنه ولا نظهره. وهي تصوير مرئي لكل ما يشغلنا ويثير مخيلاتنا. لكننا نخاف الإفصاح عنه لئلا تتكشف نقاط ضعفنا فيستغلها الحاقدون وينقضّون علينا، ومنها يا مولاي ما يحمل نبوءة وتوقعا بأحداث جلل.

أما فيما يخص ما أقلق منامكم وأزعج أفكاركم، فاعلم يا سلطان السلاطين أن ما رأيتموه من الأمور الجسام التي تستوجب منكم جل الاهتمام. فسلطانك في خطر كبير وأعداؤك يدبرون لك التدابير للتخلص منك وتجريدك من أموالك وممتلكاتك.

إن ما جاءك في المنام ما هو إلا هاتف ومنذر بسوء المنقلب. إشارة لمولاي بسرعة التدبير للقضاء على خطر عظيم. خطر يأتي على سلطنتك وحكمك. خطر يأتي في غمضة عين. ينقض انقضاض النسر على فريسته. يتربص بها منتظرا اللحظة المواتية. لحظة ضعف لا تدوم سوى ثوان معدودة. لحظة قد لا تتكرر. فإما القنص أو الموت جوعًا.

امتعض وجه السلطان وشحب لونه من هول الصدمة.

- هل هناك في سلطنتي من يرغب في النيل مني أنا؟ لماذا؟

- هذا ما لا أستطيع الرد عليه يا مولاي. ولكني واثق أنكم بحكمتكم ستجدون الرد على هذه الأسئلة. ولكن بصفتي مفسرًا للأحلام، فإنني أستطيع إطلاعكم على ما رأيتم وتفسير ما قد يحيط بها من غموض فأدلكم على مكامن الخطر المتربص بكم ومن ثم تقررون الفعل الأنسب للتعامل معه.

أما الخطر يا مولاي فهو في بسطاء الناس من رعيتكم. لكنهم ليسوا الخطر ذاته، بل هم حاملون له في عقولهم وقلوبهم. هو يتكاثر وينتقل فيما بينهم سرعة النار في الهشيم. هو خطر شديد العدوى ويصيب العقل باللوثة. إنه يا مولاي خطر الأحلام!

- الأحلام؟ وكيف للأحلام أن تقصيني من على عرشي؟

- الأحلام يا مولاي هي القشة التي يتعلق بها الغريق لينجو من الموت المحتم. هي آخر ملاذ لمن لا أمل له. فيعيش في الأوهام والأحلام. فيخلق من أحلامه عالما موازيا يهرب به من هموم حياته فتكون له سندا في عبور محنه.

و الأدهى من ذلك، فإنها تغذي الناس بالأمل الكاذب في التغيير فيتطاولون على أولي الأمر ويتجرأون عليهم آملين في الإطاحة بهم لتنفيذ أوهام أحلامهم.

هذا يا مولاي مكمن الخطورة.

- يا ستار يا رب ! كل هذا من حلم واحد؟

- لا يا مولاي، إنه ليس حلما واحدا. إنه حلم يتكاثر ويتوالد كالجرذان. يختبئ في الجحور ويتوالد على حين غفلة من صاحب الدار. إنه يتناسل فتخرج منه تنويعات من ذات الحلم بالإضافة إلى أحلام جديدة تتناقل من منزل إلى آخر دون أن تراه. ينتشر كانتشار الوباء في البلاد. فلا تسطيع رؤيته ولا تستطيع الإمساك به. وما بين ليل وضحاه يكون الحلم ومشتقاته قد دخلوا كل بيت، بل وتملكوا الناس وسكنوا عقولهم وقلوبهم حتى يتحولوا إلى قناعات يستحيل زحزحتها. فتسيطر الفكرة على ألبابهم وتتملكهم نهارًا ومساءًا. فتشل عقولهم وتهيمن على تصرفاتهم إلى أن يصبحوا عبيدا لهذه الهلاوس. ولن يهدأوا يا مولاي حتى يتمكنوا. وساعتها تكون الفوضى العارمة.

- لا بد من القضاء إذًا على هذه الأحلام الخطيرة ! ولكن كيف؟

لكن قل لي أولًا، ما هي طبيعة هذا الخطر الداهم؟ كيف لي أن أتصدى له إذا لم أعرف ماهيته؟

- إنه يا مولاي في دهاء الثعلب وسرعة الظبي وانتشار الجراد في الأرض. يتكون في الخفاء. يتحرك تحت جنح الليل. يتحرك في سرعة وخفة. لا تستطيع الإمساك به. ينتقل كالعدوى بين الناس. حتى لو أمسكت بواحد منه يكون قد تناسل وتضاعف على

هيئات عدة. هو خبيث. تخاله يظهر لك في هيئة فإذا به يخدعك ويتكشف في شكل مغاير. تحسبه أليفا بل عاجزا ولكنه يبطن غير ما يظهر.ففي باطنه الغدر والخيانة. النفاق والرياء. ينتظر اللحظة المواتية. اللحظة التي تخدر فيها حواسك. حينئذ يلدغك في مقتل. يخرج نصله من طيات ملابسه ويطعنك في ظهرك على حين غفلة. طعنة غدر. طعنة الخلاص والتخلص.

- و لكن من هو؟

- هو يا مولاي كل من فقد الأمن والأمان. كل من يعيش عيشة مضنية. يكدح ويكد فيها ولا يكاد يقضي حاجة بيته. فيعود إلى داره منكس الرأس من الهم والعار. كيف له أن يرفع رأسه عاليا في بيته وهو عاجز؟ عاجز عن تلبية احتياجات أهله الأساسية. كيف وهو يرى عظام أبنائه وقد بانت من تحت جلدهم؟ كيف وهو يرى ملابسهم وقد تهرأت من كثرة الاستخدام؟ كيف له أن يهنأ وهو غير قادر على علاج أبنائه إذا مرضوا ولا أن يزودهم بعلم ينفعهم ويقيهم من السؤال والحاجة؟

هو يا مولاي الفقر الذي استوحش. هو كرامة الإنسان التي أتى عليها العوز والحاجة. العوز الذي أصبح مهانة. الذي غدا سيفًا مسلطًا على رقبته. إن لم يخرج ليلبي احتياجاته البسيطة يومًا واحدًا غُرِزَ النصل في رقبته حتى أدماها، فأحس بظلم الأيام وغدرها. فإن

لم يكرمها أذلته وأهانته في شرفه ثم قضت عليه. قضت عليه بعدما صار الدم لا قيمة له إلا صبغة تتلون بها الشوارع فتصبح رسالة شديدة اللهجة لكل من تمرد وكل من تجرأ.

هو يا مولاي القهر. القهر الذي يرهب الناس ويجعلهم يتقون شر السلطان والفاسدين من حوله فيسكتون عن الحق ويتقبلون الظلم. يرون الظلم محدقا في وجوههم في تحدٍّ سافر. تحد يدفعهم إلى الإنكسار. إلى تنكيس الرؤوس ومداراة نظرة العار التي تشوبهم. نظرة الذل والمهانة التي تعتريهم. نظرة لا يراها أحد، أو هكذا يظنون. إلا أنهم ينسون أن الظالم تكفيه هذه الانحناءة ليرى نظرة الذل والخنوع ترتسم على وجوههم. يراها في مخيلته عين اليقين، فلا يتوانى عن صفعهم على قفاهم استكمالا للإهانة. استكمالا لفرض السيطرة. التلذذ بظلم المستضعفين. ينسون أنهم وهم يخفون رؤوسهم في الرمال تراهم الأرض. تراهم ويدمى قلبها حزنا على ساكنيها. الأرض التي هي أقرب الأقربين إلى هؤلاء السائلين الفقراء. هؤلاء الفقراء خاويو الجيوب. بقجة الأحاسيس المكتومة. مدفوسة الرأس في الرمال. تعتليها الأحذية الفاخرة. تدوس عليها حتى لا ترتفع أبدا. الأرض التي تربطها بهؤلاء الأذلاء صلة رحم. ممتلئون بالكراهية والذل. بالإهانة والظلم.

الأرض التي تجود عليهم بكل ما في باطنها. إلا أنها عاجزة. عاجزة لأن خيرها لم يعد ملكها. عاجزة لأنها هي الأخرى مهانة.

مستباحة. لكن لمالكها فقط. يغتصبها كيفما شاء. وقتما أراد. لا يقترب منها غيره. من يتجرأ على مداعبتها أو مغازلتها كان مصيره حتميا. يغذي بدمه ترابها فيزيد من بكائها عليه. تمتنع عن الزود بخيرها حدادًا عليه. حدادًا على خليلها الذي أسر لها بكل ما في جوفه من أحاسيس.

فهل تلومه يا مولاي؟

هو يا مولاي من فقد الإحساس بالعدل فباتت كرامته مستباحة لكل ذي سطوة.

هو يا مولاي من غذى الظلم قلبه بالكراهية والحقد. من حاول وجاهد أن يحافظ على رأسه مرفوعا. لكن الزمان استعصى عليه. غالبه فغلبه. لم يدع له إلا اختيارا من اثنين. إما التحول إلى ثور مربوط عنقه إلى ساقية الحياة. ساقية السعي وراء حوائجه البسيطة وقوت عائلته الذي لا يكاد يكفي. الخيار الثاني هو الاستسلام للزمان فيصير عبدا ذليلا.

هذا هو عدوك يا مولاي.

عدوك يا مولاي صنعته أنت وحاشيتك. شكلته الأيام.

- كيف تجرؤ على أن تخاطبني بمثل هذه اللهجة؟! هل نسيت أنك في حضرة سلطان البلاد؟

- عفوًا يا مولاي. كيف لي أن أنسى ذلك وأنا في كرم ضيافتكم؟
لكني يا مولاي لم آتِ بكلام غير كلامكم. كل ما ذكرته لكم ما هو إلا تفسير الأحلام التي سردتموها لي. وقد ائتمنتموني على أسرار منامكم ولا يسعني إلا أن أبادلكم هذه الثقة بأمانة التفسير.

ولا يسعني إلا أن أبوح لكم بالحقيقة مهما كانت مرة. وقد تعهدت ألا أكون امتدادا لبطانتكم التي تحجب عنكم الحقيقة.

واعلم يا مولاي أن الأحلام ما هي إلا امتداد الناس. هي اللاوعي متمثلًا يظهر للناس على هيئة صور. هي واقع متنكر. يستتر صباحا ويخرج للحياة ليلًا متخفيًا في شكل مغاير للواقع.

لكننا إذا جردنا هذه الصور وأعدناها إلى أصلها، باتت الحقيقة عارية. الحقيقة مجردة من كل زي ومن كل جمال. باتت قبيحة، لكنها الحقيقة. ومهما بدلنا فيها فهي ستكشف دوما عن نفسها. لا محالة.

- فسر لي إذًا ما رأيته في الأحلام.

- سمعًا وطاعة يا مولاي.

أما فيما يخص ما جاءكم في المنام، فهي صور كثيرة. متشابكة المعاني. هي في مجملها لا تحمل سوى تحذير مبطن بأحداث جسام ومعانٍ لا تحوي إلا الشر والخطر. أحداث تنبئ بالتهديد لكم ولسلطنتكم.

فأما الشاب الذي لطمكم إنما هو من أبناء رعيتكم وهو يحمل لكم رسالة تحذير وتنبيه لما سوف يأتي من أحداث. وهو يهدف من لطمته تلك إلى إفاقتكم من غيبوبتكم التي أعمتكم عن شئون سلطنتكم واحتياجات رعيتكم. فكان التنبيه واجبا. لكنكم غير مصغين. ولما كان منكم هذا الإهمال، شهر سيف الفتنة في وجهكم مهددا بسوء المنقلب. أما تجمع السحب الحمراء فهو دليل على وقوع الفتنة والكرب اللذين سيصيبان السلطنة. والغيث المدمر للأشجار ما هو إلا هلاك في سلطنتكم وقصركم.

والقمر المحتجب خلف السحب فهو - والعياذ بالله يا مولاي - سلطانكم الذي تُجرّدون منه وتُعزلون عنه. وأما ظهور الشمس والقمر والنجوم بلا نور فهي مصيبة تنزل بكم تضطركم إلى الفرار. وهو ما تبين في تجاور الشمس والقمر.

ولا تتوقف المصائب عند هذا الحد. فتسقط الضحايا من نبلاء وعظام القوم في سلطنتكم ويتساقط من بسطاء الناس من أبناء رعيتكم. فيروح نتيجة لهذه الفتنة كل صاحب جاه وسلطان في مملكتكم. هؤلاء هم الكواكب العظيمة في حلمكم. ولا يسلم منها صغار الكواكب: ضعاف القوم وأبسطهم. وهم ضحايا الفتنة الحقيقيين. هم من يبذلون أرواحهم للقضاء عليكم وعلى

سلطانكم. فهم المستضعفون والمجهولون من الناس. هم من يضحون بأرواحهم لتبقى قضيتهم على قيد الحياة. تنبض بالأمل ليحيا بها الناس ولا ييأسون أبدا.

- و لكن ما دلالة ذلك أيها المفسر؟

- المعنى يا مولانا السلطان واضح وجلي.

- ألا وهو؟

- قبل أن أجيب أود أن أذكر مولانا السلطان أنكم منحتموني الأمان.

- لست بحاجة لأن تذكرني بما قطعته من وعود، ألا تكفيك كلمة سلطان البلاد أيها الفتى؟

- عفوًا يا مولانا، كلمتكم شرف يسعى إليه العباد. ولكني أخاف أن أنطق بكلمات لا يكون لها وقع طيب على مسامع مولانا السلطان.

- هاتِ ما عندك ودعك من هذا الكلام الكثير.

- أمرك يا مولانا السلطان. الأمر وما فيه يا مولانا أن العامة يعانون في ظل حكمكم ويمرون بظروف غاية في القسوة وصبروا صبرا عظيما ولكن الأمور تتعاظم كل يوم فلم يعد بمقدورهم التحمل أكثر من ذلك حيث وصلوا إلى نهاية مطاف الصبر والقدرة على التحمل.

لذا سيقوم الناس بفتنة ضد مولانا السلطان وستسود الفوضى البلاد وسيروح ضحيتها نفر غير قليل من السادة والرعية وستسيل الدماء في الطرقات فيهلك سلطانكم ونفوذكم ويتم إقصاؤكم من حكمكم وطردكم من قصركم.

- أي هراء هذا الذي تقوله؟ من هؤلاء الذين يتجرأون على سلطان البلاد حاكم أراضي المشرق والمغرب؟ لا يقوى هؤلاء الرعاع السوقيون على الإطاحة بي. لقد عجز أمراء المماليك عن إنزالي عن العرش بسلاحهم ومكائدهم ومؤامراتهم التي يحيكونها ضدي في السر وفي العلن. فشلوا في القضاء عليَّ وعلى حكمي، أتعرف لماذا؟ لأني أمتلك من القوة والسلطان ما لن ينالوا في حياتهم قط. أنا أقولها لك ولهم ولكل من تسول له نفسه، لن يتم زعزعة عرش سلطان البلاد لا من رعاع ولا من أي قوة بشرية على هذه الأرض.

اخرج من هنا، الآن ...

يتسمر المفسر من فرط الصدمة ومن مباغتة السلطان له بالهجوم العنيف وحدة كلامه. يعجز عن تحريك أطرافه ولا يقوى على أن يفكر في أي شيء غير رغبته في تحسس رقبته للتأكد من أنها لا زالت في موضعها. تمر ثوان معدودة ولكنه يحس بها وكأنها دهر طويل. لا يدري كم من الوقت قد مر على تسمره في مكانه ولكنه استفاق

على صوت صفقة الباب، كان السلطان قد غضب وخرج من القاعة في أوج انفعاله. وجد المفسر نفسه وحيدا في القاعة. ترددت التساؤلات في رأسه، صالت وجالت، زادت حيرته.. هل يقتله السلطان؟ هل يحنث بوعده وعهده بمنحه الأمان؟ لماذا يتضايق الحكام من قولة حق؟ ما الذي أغضبه في كلامه إلى هذا الحد؟ هل أساء التعبير؟ هل كان اختيار كلماته وتعبيراته غير موفق؟ ترى ماذا يفعل الآن؟ هل ينفث عن غضبه أم يعيد التفكير فيما قال؟ هل سيصدر قرارا بمنعه عن مزاولة عمله وعلمه؟ وماذا بعد؟ هل يوسَّط أم يتم خوزقته؟ هل يتم تجريسه قبل تنفيذ الحكم فيصبح فرجة لكل من يسوى ولا يسوى؟

- اللهم ارفق بي وهدئ من روعه واهده إلى صوابه فما أنا إلا عبد قد بلغ الرسالة كما رواها لي صاحبها...

ارفق بي يا رحمن يا رحيم.

كابوس السلطان الثاني

كنت سائرا في بستاني أستمتع بالأشجار الوارفة التي جمعتها حملاتي العسكرية من شتى جزر المعمورة. كل واحدة فيها من جزيرة لم تطأها قدم من قبل. لكل شجرة منها خصائص وميزات. انتقاها كبير المسئولين عن الحدائق السلطانية لزرعها في بستاني الخاص.

كنت إذًا سائرا محاطا بجمال الطبيعة، مستمتعا بحصاد غزواتي التي لم تُرق فيها قطرة دم واحدة. غزوات لم تهدف إلى احتلال أرض أو إسالة الدماء أنهارا. بل فتوحات كان هدفها الرئيسي هو تمجيد الجمال ونشره في سائر الأرجاء. نشر العدالة والمساواة في الاستمتاع بالجمال وإيجاد جو من الحب والعشق.

وإذا بطائر غريب الهيئة يحلق في جنتي. يحوم ويدور كأنه يستعد ليغير على عدو. يتعرف على معالم أرض المعركة في جولة استطلاعية لتحديد أماكن الهجوم على الهدف المراد النيل منه. صال وجال عدة مرات وفجأة...

فجأة مر من فوق رأسي مباشرة. مر بسرعة فائقة حتى أنني ظننت أنه سيقتلعني من الأرض بمخالبه. تسمرت في مكاني ظنا مني أن هذا سيحميني منه. أو لعلها كانت طريقتي في الارتباك. إلا أنه لم يصبني بأدنى جرح. تجاوزني. استدار عائدا ليكون في تمام مواجهتي. توقف برهة ثم لمحته يحدجني بنظره. نظرة عميقة. نظرة فيها من الإصرار والتحدي ما لم أعهده من قبل.

هل كان في السلطنة من يجرؤ على رفع عينيه في وجودي؟ أدركت حينئذ أنني لم أر في حياتي عيني أيٍّ كان في سلطنتي. كان الجميع في حضوري منكسي الرؤوس. لا يجرؤون على النظر إليَّ أو مواجهتي. والآن هذا الطائر الغريب.. إنه لا ينظر إليَّ.. إنه يتحداني.

وإذا به يضرب بجناحيه الهواء كأنما بينهما ثأر مبيت. يلسع الهواء بجناحيه فتزيد سرعته. تتضح تفاصيل عينيه ونظرته الغريبة. نظرة التحدي.

أحسست كأنني قد تم امتصاصي داخل العينين السوداوين. غمرني خدر خفيف لكنه قوي التأثير. جُذِبتُ إلى البؤرتين إلى أن فقدت الإحساس بكل ما يحيط بي. كل ما أتذكره - أو ما خيل إليَّ - أنني في دوامة داخل نفق طويل ومظلم. تدور بي الدنيا فتتوه عني الحواس والاتجاهات داخل هذا المكان الموحش.

فجأة تلقفني مكان موحش. خال من كل صوت وحياة. خال من كل حركة. شديد الظلام. لم أتبين منه أول من آخر. وجدت نفسي محلقا في فراغ. توقفت بي الحركة اللولبية التي تلقفتني من أول دخولي النفق. ثم توقف الزمن. توقف كل شيء وعدت إلى إدراكي. دفقات الدم في عروقي. أكاد أحس بكل قطرة تجري في عروقي. دقات قلبي. أسمعها دقة دقة. أحس بها تزلزل ضلوعي. تكاد تخلعها من مكانها. كان هذا الثبات مرعبا. بدأت الخواطر تتكشف لي وتتجلى في صور مرئية. كأن عيونا قد زُرِعَت في رأسي وقلبي. عيونا تراقب كل فكرة وكل إحساس. كانت العتمة شديدة بالرغم من أن النور لم ينطفئ. سطع النور كأنما أُضرِمَت النار في ليلة صحراء شتوية. إلا أن هذا النور لم يكن نورا حسيا بل وجوديا. أحس به ويحس بي. يكشف لي عن أهوال أفكاري. يتغلغل في جنبات قلبي وزواياه. بدأت لأول مرة أرى جوانب من تكويني ومن شخصي لم أكن أدركها من قبل. كان لا بد لي من الوحشة والعزلة لأرى الشياطين التي تسكنني. استأنستها فروضتني. صرت وحشا تحت الطلب. خارج سيطرة ذاتي.

أفقت. وجدت نفسي وحيدا. مطروحا على الأرض. مطروحا من هول ما رأيت. من قبح الحقيقة التي تكشفت لي. وجدت شعري منتصبا كأني رأيت الموت بعيني. لوني شاحب. عيني

زائغتان. تائهتان. جامدتان. لكنهما في ذات الوقت خاويتان. تسقط عليهما النور فتخترقهما. دون أن تترك أدنى ذكرى فيهما أو من خلالهما.

من أنا؟

كيف دخلت هذا النفق المظلم؟ كيف خرجت منه؟ أي مكروه أصابني؟

ترى هل لهذه الدرب عودة؟

أقبع في مكاني والطائر الغريب يبتعد..

* * *

جابر

السوق

استيقظ جابر النقلي على صوت أذان الفجر. قام من مرقده وتوجه إلى شباك الطبقة[1] المطل على سوق القصاصين. تخللت بشائر الصباح وأولى ملامحه ونسماته داخل الطبقة فأحس بانتعاش لذيذ.

توجه إلى إبريق الماء، حمله إلى الطست الذي يحتفظ به تحت سريره، ملأه ماء من الزير وصب الماء في يده اليسرى وراح يغسل وجهه ورأسه استعدادا ليوم جديد من العمل الشاق.

كان جابر يتاجر في اللوز والبندق وكافة المكسرات. كان يعرض بضاعته في حانوت صغير بسوق النقليين[2] كسائر أبناء كاره.

---

(1) الطبقة: وحدة سكنية في ربع.

(2) النقلي: بائع المكسرات.

لبس جلبابه واعتمر زمطه[1] استعدادا لمشواره اليومي عبر أسواق وخطط[2] وحارات القاهرة وصولا إلى محل عمله. فتح باب الطبقة واجتاز المجاز[3] إلى أن وصل إلى المطلع ونزل الدرج بخفة ورشاقة الغزلان على الرغم من حجمه الضخم. تجاوز مدخل ربع[4] بارسباي الذي يسكنه ودار يمينا إلى سوق القصاصين ومنه إلى سوق بين القصرين، أو ما تبقى منه. عجيب ما وردنا من تاريخ وقصص هذا السوق وعظمته في أزمنة سابقة وما آل إليه الآن حيث لم يتبق لنا منه شيئا اللهم إلا اسمه مجردا من كل مجد. اخترق جابر السوق ومنه إلى سوق السلاح فسوق القفيصات ذلك السوق الشهير بتجار الخواتيم والفصوص والأساور والخلاخيل. كان التجار أو أرباب الأقفاص- كما كانوا معروفين - يعرضون بضاعتهم في أقفاص من حديد مشبك يضعونها فوق تخوت خشبية صغيرة ويتراصون تجاه شبابيك القبة المنصورية.

وكان السوق مغطى بخيمة ضخمة ذرعها مئة ذراع تمتد من أول جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية وصولا إلى حد

(1) الزمط: غطاء للرأس كان يلبس في عصر المماليك.

(2) خطط: جمع خُط وهو طريق رئيسي تكثر فيه الأسواق والحوانيت.

(3) المجاز: الممر المشترك بين الوحدات السكنية في الربع.

(4) الربع: مجمع سكني مكون من غرف صغيرة (طباق) عادة ما تكون أعلى قيسارية أو وكالة.

المدرسة المنصورية بجوار الصاغة. وبما أن الشمس لم تكن قد توسطت كبد السماء بعد، فكانت الخيمة مطوية على نفسها.

وما أن ينتهي من حدود سوق القفيصات حتى يصل إلى أول سوق النقليين حيث حانوته الصغير الواقع في منتصف سوق بين القصرين.

وصل جابر إلى حانوته ليجد محمود الصبي قد فتحه وبدأ رش الماء أمامه اتقاء لقيظ النهار وترطيبا للجو. وما أن انتهى من رشه المياه وارتاح لاستقرار الأتربة المثارة من جراء الرش حتى بدأ يخرج أجولة البندق واللوز والجوز وما شابهها من بضائع ليرصها أمام الحانوت وبحذاء سوره الصغير.

وما أن رأى جابر حتى هرع إلى داخل الحانوت وخرج منه حاملا البسط والوسائد التي فرشها على المصطبة القابعة بجوار مدخل الدكان حيث يرتكز جابر ويتابع أعماله. ألقى محمود التحية على معلمه وهرول إلى تاجر القهوة ليعجل من الإتيان بفنجان القهوة الصباحية التي لا يروق مزاج جابر إلا به.

اعتلى جابر المصطبة بعدما خلع خفيه. تربع على البسط واتكأ بساعده الأيسر على الوسائد. لحظات وكان فنجان القهوة بين يديه يبث دفئه راحة وترسل له رائحته بهجة ولذة. يعلم أن يومه لا يستقيم إلا بشيئين، قهوة الصباح واجتماعه إلى أصحابه كل مساء في حمام إينال.

بدأت الحركة تدب في السوق وتزايد المارة مع دوران الشمس. سلام هنا وسلام هناك، زبون يجادل وأخرى تساوم بدلال وآخر يتسامر مع جابر وصبيانه.

ينتصف النهار فترسل أشعة الشمس المتوهجة بسهامها الحارقة مذكرة جابر باقتراب موعد الغداء. يتسلل الجوع إلى نفسه ويتوجه مباشرة إلى ابن مهنته في الحانوت الملاصق لحانوته، عبد القادر. على مدار أعوام طوال اعتاد جابر وعبد القادر على تناول وجبة الغداء معا.

- يا ولد يا محمود.

نادى جابر على صبيه.

- تحت أمرك يا سي جابر.

- اذهب إلى سوق الطباخين وآتِ للريس عبد القادر ولي طعاما نأكله.

- تحت أمرك يا سيدي. وماذا يود الأفاضل أكله اليوم؟

- آتنا ببعض الأكارع والقليل من النقانق فلقد أصبح سعر اللحم غير معقول وعلينا الاقتصاد أكثر من ذي قبل.

- ونعم التفكير يا جابر.. فلقد أصبحت الحياة شاقة والأسعار تناطح السحب كل يوم.

- نعم يا عبد القادر وازداد جبروت العريف[1] والمحتسب[2] والسلطان وسائر الأمراء فزادت المغارم[3] وفرضت علينا المزيد من المكوس[4] ولا داعي طبعا لذكر الفلاحين البسطاء وما يعانون منه من زيادات في الجزية[5] مما يضطرنا أن نرفع الأسعار كل يوم.

- واللهِ يا أخي هذا حال لا يرضى به أحد. هل لاحظت كيف أصبح الكثير من الناس يلبسون الجوخ[6] بعد أن كان مستخدما فقط اتقاءً من المطر؟ فزاد نشاط الجوخيين[7] وتدهور حال الخلعيين[8]... سبحان الله، حقا مصائب قوم عند قوم منافع.

- هل وصلك نبأ انتشار الفناء الكبير[9] في الجيزة؟

- نعم سمعت الأخبار. إنه لأمر مقلق جدا ولكني لا أتعجب من حدوثه.

---

(1) العريف: هو القيِّم بأمر مهنة أو حرفة أو تجارة وكان تابعا للمحتسب.

(2) المحتسب: هو المسئول الأول عن ضبط الأسواق والتأكد من عدم الغش في السلع والموازين.

(3) المغارم: نوع من الضرائب.

(4) المكوس: ضرائب تفرض على التجارة.

(5) الجزية: الضريبة التي كانت تفرض على الأرض الزراعية.

(6) كان الناس قديما يلبسون الجوخ احتماء من المطر فقط ولما تدهورت الحالة الاقتصادية اضطروا إلى استخدامه كملابس وكان يعتبر علامة دالة على الفقر.

(7) الجوخيين: تجار الجوخ.

(8) الخلعيين: تجار الملابس المستعملة.

(9) الفناء الكبير: الاسم الذي كان يطلق على مرض الكوليرا قديما.

- لماذا؟

- ماذا تتوقع مع زيادة الأسعار والمظالم وانعدام الضمير؟ أغلب الطعام فاسد فزادت المجاعة وزادت الأمراض التي تؤدي إلى الوفاة. وطبعا مع زيادة الوفيات تتراكم الجيف حيث لا يقدر أحد على تكلفة الدفن في ظل هذه الأوضاع. لذا من الطبيعي أن تنتشر الأوبئة ونصير في حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر.

- لقد بلغني أن الناس في الأرياف باتوا يأكلون الميتات من شدة الجوع والفقر.

- وتتعجب من انتشار الفناء الكبير بعد ذلك؟

- اللهم استرنا يا رب. لا شيء أشد رعبا من أن يطالعك الموت في الطرقات وعند كل ناصية. وما أسوأ ارتباك المرء حينما يرى علامة بطلاء أسود كئيب يلخص الموقف كله دون الحاجة إلى نطق كلمة واحدة. ساعتها تحاول التذكر من كان يشغل هذه الدار وهذا الحانوت وتتخيل منظره وخيوط الدم تسيل من فمه وصراخه من الألم. ألم اللحظة الأخيرة ... ثم تتخيل حالة الهلع التي تصيب الحي كله والفرار الجماعي من موت محقق. داء عجز معه كل دواء. ترى هل هي لعنة من الله أم رسالة؟

- هـا هو الولد محمود قد جاء بالطعام. دعنا من هذا الموضوع وسمِّ.

- بسم الله

نداء

يا أهالي القاهرة،

نوصي بالمعروف وننهى عن المنكر

ينهي إليكم

متولي حسبة الديار المصرية

فاسمعوا واعوا

حرم عليكم التناول في شئون السلطنة

و كل من خالف

قطع دابره بغير معاودة

فاسمعوا

و اعوا ...

* * *

يَنفَضّ الجمع من حول المنادي والناس تضرب كفًّا بكف. برطمة وتمتمة تنم عن عدم رضاء. تململ الوجوه. صدمة تنزل على الخلق وكأنه إعلان بموت محقق.

- لا حول ولا قوة إلا بالله..حتى الكلام الذي ننفس به عن غضبنا ونصبر به ونعيش من أجله نحرم منه؟

- ربنا على المفتري ...

- من سمع النداء كان ليظن أن الخيرات تنزل علينا من السماء كل صباح ولذا لا نمانع أن نحرم من حق بسيط كهذا..

- آه لو عرف حقيقة الأمر ...

- لو علم مولانا السلطان ...

- مولانا السلطان؟ هاهاها.

- مولانا السلطان نائم في العسل. كل ليلة مع جارية مليحة، يأكل من الطيبات والخيرات ما لن نراه في أحلامنا.

- أسكت أيها الأخرق. هل تريد أن تكون أول من يوسّط؟

- والله إن قتلي أرحم عليَّ وأهون من هذه الحياة البائسة التي نعيشها.

- لعلك على حق في ذلك.

- لنا الله يحمينا.

- يمهل ولا يهمل.

- إلى متى الانتظار؟ إلى متى؟

ينفض الجمع والناس يمشون وكأن الصاعقة قد نزلت على رؤوسهم. يذهب كل إلى حال سبيله منكس الرأس، جارا أقدامه خلفه راسما بها خيوط متعرجة في تراب الطرقات.

* * *

- ها هي البشائر تحل علينا، لم تمر ساعات من النزول علينا بنداء عجيب يمنعنا من الحديث عما يدور في السلطنة أو حتى التندر على السلطان والأحداث والأمراء والمماليك حتى بدأ التنفيذ...

ألا يكفينا عذاب الحياة اليومية والسعي خلف قوت يومنا؟

- و ما الذي حدث يا جابر حتى تكون مستاءً إلى هذه الدرجة؟

- ألم تسمع يا عبد القادر الأخبار؟

- أية أخبار يا جابر؟

ألقت قوات الأمن القبض على مدونين وشباب من قوى وأحزاب سياسية مختلفة كانوا في طريقهم لتقديم واجب العزاء لأسر ضحايا حادث نجع حمادي وذلك فور وصولهم إلى المدينة.

16 يناير 2010.

الشاعر ينذر «6 أبريل» على يد محضر :

مظاهرتكم مرفوضة

5 أبريل 2010.

أجهضت قوات الأمن أمس المظاهرة التي دعت لها حركة شباب 6 أبريل في ذكرى يوم 6 أبريل الذي أصبح معروفا بيوم الغضب. وتراوحت أعداد المقبوض عليهم ما بين 70 إلى 100 متظاهر بحسب تقديرات المحامين في لجنة الدفاع عن متظاهري مصر.

واعتدى أفراد الأمن المركزي على المتظاهرين من الجنسين مستخدمين العصي الكهربائية مما أسفر عن وقوع تصادمات بين الأمن والمتظاهرين..

7 أبريل 2010.

ألقت الشرطة القبض على المدونين عمرو سلامة وأسامة عبد الحميد بنداري أثناء تصويرهما «عمليات التزوير» في بعض اللجان بالدائرة الرابعة بمحافظة الشرقية.

3 يونيو 2010.

في مساء الأحد الماضي وفي قلب ميدان لاظوغلي، كان هناك مشهد يعبر بوضوح عن حالة السياسة في مصر. أكثر من ألف جندي

يحيطون بأقل من خمسين ناشطا سياسيا جاءوا للمطالبة بالتحقيق في مقتل خالد صبحي سعيد.

16 يونيو 2010.

- و لكن لماذا؟ ماذا اقترفوا من ذنب يا جابر حتى ينزل عليهم المماليك والجلبان والجنود بمثل هذا التنكيل؟

- لا شيء البتة سوى أنهم رأوا المنكر بأعينهم وحاولوا أن يغيروه بألسنتهم.. هل في ذلك ما يعيب؟ ولم يكتفِ الطغاة بذلك بل زادوا على هذا الأمر واستمروا في ممارساتهم:

لجأت الشرطة في أحيان إلى البطش بالطرق التقليدية كالضرب والاعتقال خاصة في الوقفة الثالثة يوم 9 يوليو، لكن في أغلب الحالات فإن محاولة منع الناس من المشاركة في الوقفة طرقت أنواعا جديدة من الممنوعات فكان يقال للمشاركين «ممنوع الوقوف على الكورنيش» أو يتم توقيفهم وسؤالهم «إنت لابس إسود ليه؟».

حالة القمع التي نعيشها لا تقتصر فقط على الحريات السياسية وإنما تشمل أيضا الحريات والحقوق الشخصية. وها هي أصغر هذه الحقوق وأكثرها براءة - شم الهواء على كوبري قصر النيل - مهددة بدعوى حمايتنا من الانتحار..

15 أغسطس 2010.

كشف شادي طارق الغزالي حرب، المدرس المساعد بجامعة القاهرة والقيادي في الحملة الشعبية لدعم ترشيح محمد البرادعي لرئاسة الجمهورية، تفاصيل 35 ساعة قضاها في مباحث أمن الدولة..

جردوني من ملابسي للكشف عليَّ بعد القبض وقبل الإفراج للتأكد من أنني خرجت مثلما دخلت.

17 سبتمبر 2010.

- جردوه من ملابسه؟ هل وصل بنا الأمر إلى هذا الحد؟ أما للجسد حرمة؟ من أي معدن صنع هؤلاء؟

ألا تشعر حكومتنا وحزبنا الحاكم بالخجل وهو يرى تداول السلطة في كل بلدان العالم المحترم عبر انتخابات حرة ديمقراطية، بينما هو «كابس» على نفس هذا الشعب منذ عشرات السنين من دون أي أمل في التغيير.

11 نوفمبر 2010.

- ولم يكتفوا بهذا القدر من كتم الأنفاس بل تجاوزوا الأمر إلى أبعد مدى.

- أوما بعد كل ذلك ما هو أسوأ؟

عضو «وطني»: اللي مش حينتخب المصيلحي حلال فيه الموت.

21 نوفمبر 2010.

* * *

مشاهد من السوق

- صلي على النبي ... صلي على النبي يا جدع.

صاح بها أحمد السقاء في ندائه المعهود ليفسح له مرتادو الأسواق الطريق. يشق الخطط والحواري حاملا قربته الجلدية الضخمة المنداة على كتفه. كان الرجل الأربعيني يسير في خطى ثابتة على الرغم من ثقل القربة التي أجبرته على المشي منحني الظهر.

- ها هو أحمد يجوب الشوارع بمائه المخلوط بمياه الآبار.. يدخل البيوت ويتبادل النميمة مع النسوان وينقل أخبار الناس وكل القيل والقال. حتى الماء غشوه ثم يأتون على التجار أمثالنا وينهالون علينا مكوسا وحقوقا سلطانية وجلد وضرب. ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد بل يهاجمنا الجلبان[1] ويستولون على بضائعنا

---

(1) الجلبان: المماليك الذين كان السُّلطانُ يجلبهم كبارًا، ويجعلهم في خدمتِه، خلافًا للقاعدة التي سار عليها المماليكُ في صدرِهم الأول بشراءِ المماليك الصِّغار دون البلوغ، والقيام على تربيتِهم وتنشئتِهم فيغرسوا=

ظلما وافتراءً حتى يزيدوا غنى على غنى ليشتروا بها فيما بعد سلطة فتزداد سطوتهم ويزيد ظلمهم فينا. يجنون الثروة والسطوة ونزداد نحن فقرا ومرضا.

- اسكت يا جابر..ألم تسمع المنادي منذ قليل وهو يحذر من الكلام في أمور السلطنة؟ هل تريد أن تعلق على باب زويلة وتُوَسّط؟

- يا عبد القادر لم أعد أتحمل كل هذا الظلم.. لماذا يا رب تفعل بنا هذا؟

- هل كفرت بربك يا جابر؟ صبرا يا أخي على حكمه. ألم يقل ربك «إن مع العسر يسرا»؟ لقد مررنا بالكثير من قبل ولن تكون هذه هي آخر محنة.

- لا يا عبد القادر.. هذه المرة الأمر مختلف. هذه المرة نحن محاصرون... غلاء ووباء وفقر وانعدام ضمير وغش وظلم ومنع الكلام... ماذا تبقى لنا؟ حتى كرامتنا أهينت وأذلت. لقد داسوا بأرجلهم على رؤوسنا وغمروها في الوحل.. فهل تبقى من آدميتك شيء بعد هذه المهانة؟ لا يا عبد القادر.. الأمر مختلف هذه المرة. والله لم يتبق لهم إلا أن يمنعونا من أن نحلم.

- استر يا رب.. استر يا رب.. موكب المحتسب.

= فيهم حبَّ أستاذِهم والالتزام بطاعتِهِ والإخلاص له حتَّى بعد وفاتِه، أمَّا الجلبان فكان من السَّهلِ عليهم أن يعزلوا سيدهم أو يتمرَّدوا على أبنائِه.

كان الموكب صغيرا ولكن وقعه في النفوس كان أشد قسوة من أي منظر آخر. ارتعدت فرائص التجار والعرفاء لما عهدوه من ظلم وقسوة المحتسب. فما أن يقوم بتفقد الأسواق حتى تأكد الجميع من وقوع ضحايا.

تصدر المشهد حامل الميزان وكان هو ناقوس الخطر الذي ما أن رآه الناس حتى أدركوا أن الخطر قادم لا محالة. وكان خلف حامل الميزان على بغلته محتسب القاهرة، معتمرا عمته الكبيرة وملابسه الفاخرة يتبعه الجلاد، هذا الوحش الأسمر الذي ما أن يشير إليه المحتسب بإصبعه ويخطو خطوته الأولى حتى ينطق التاجر الذي وقف أمامه الموكب الشهادتين يقينا منه أنه لن يسلم من ضرب مبرح وجزاء قاس يقع عليه من هذا الوحش الكاسر. وفي آخر الموكب مجموعة من الخدم يحملون متعلقات المحتسب وما يقدمه له العرفاء والتجار من عطايا وهدايا اتقاءً لشره.

كان مجرد توقف الموكب مدعاة لتجمهر التجار والنساء والأطفال. تدور الأسئلة والتساؤلات في عقولهم. تحسهم كلهم تدور في خلدهم نفس الأسئلة: ترى من الضحية اليوم؟ ماذا وجد؟ هل ضبطه يغش في الميزان؟ هل وجد مأكولات فاسدة؟ هل غش في السعر؟ هل كانت قدوره وأوانيه غير نظيفة؟

كان المحتسب له نظرة ثاقبة لا تخطئ أبدا ولذا كان توقفه له دلالة وأثرا. كان له وقعا مرعبا ومدويا في القلوب.

كان المحتسب فظا، غليظ القلب، لا يرحم. وكان الجميع يعرف كيف تولى الحسبة التي اشتراها بماله الذي لا يعرف امرؤ من أين

اكتسبه وكيف أصابه هذا الغنى. كان شخصا مقيتا، مكروها ولكن كان الكل يخشاه لقسوته وانعدام رحمته.

- الله يرحم أيام المحتسب متولي.. كان عادلا، طيب القلب.. يراعي ظروف التجار وأحوال المملكة.. لا يقسو على محتاج مضطر.. ولكن في المقابل كان شديد القسوة على كل من استغل حاجة الناس وكساد الأسواق وكل محتكر ظالم. أيامها كانت الناس تنتظر موكبه لتحمل بغلته وتسير به في الأسواق وتعزف له فرق الموسيقى ويزفونه بالمزمار والنقرزان وكانت النساء يصببن عليه ماء الورد المنعش على ملابسه... كان رجلا محترما وليس ابن الـ... هذا.

- اخفض من صوتك يا جابر ...هل تبحث عن المتاعب اليوم؟

- والله لم أعد أعرف ما هو أقسى على المرء هل هو الخوزقة[1] والتوسيط والجلد أم حياة الكلاب التي نعيشها هذه؟

دمدم جابر وهو يرى عن بعد الميزان المرفوع يتقدم المسيرة ويقترب من سوق النقليين.

تقدم الميزان واقترب من حانوت جابر وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان ...

(1) الخوزقة: نوع من أنواع التعذيب في العصر المملوكي يقتضي وضع المذنب على خازوق.

المحتسب

فجأة قفز المحتسب في مجلسه على بغلته كأن شيئا قد لسعه. لم تمر ثوان معدودات حتى ضرب الجلاد قفاه، تلاه حامل الميزان بنفس الحركة لدرجة أن سقط الميزان من يده. تعجب الجمع من هذه التصرفات الغريبة للموكب ولم يلبثوا أن يفيقوا من المفاجأة حتى كانت المفاجأة الأكبر.

بدأ الموكب بأكمله بالرقص في أماكنهم، يرفعون أقدامهم من على الأرض وكأنهم داسوا حفاة على جمر مشتعل، ويرفعون أيديهم إلى رؤوسهم يحتمون من شيء ما، شيء لم يروه ولكنه كان يصيبهم بسرعة جنونية حتى أن حركة أيديهم كانت متسارعة إلى حد لا معقول. وفجأة سقط المحتسب من على بغلته، كان رأسه يدمى بشكل غير مسبوق، تعثر على الأرض ولم يلبث أن لملم شتات نفسه حتى بدأ هو الآخر في هذه الرقصة المسعورة.

ما الذي كان يحدث؟ لم يعِ شخص ما يحدث من هول المفاجأة ومن تسارع الأحداث. تسمر الناس في أماكنهم غير مدركين ما يحدث وعليهم أن يفعلوا. كان أول من نطق هو محمود صبي جابر النقلي.

- انظروا، انظروا...

تلفت الناس يمينًا ويسارًا لعلهم يرون شيئا ولكن شيئا لم يظهر.

- انظروا هناك، فوق القيسارية[1]...

كان يشير إلى قيسارية قلاوون. كان مجموعة من الصبية قد اعتلوا القيسارية وكانوا يرجمون الموكب بالطوب. نظر الناس في تعجب إلى هذا المشهد العجيب والذي لم يألفه شخص من قبل. من ذا الذي يتجرأ على التعدي على حضرة المحتسب وموكبه المهيب الذي يخلع القلوب من الصدور لمجرد رؤيته.

كان منظرا عجيبا فعلا. ولكن المفاجآت لم تكن قد انتهت بعد. لم تمض ثوان حتى خرج باعة الكتب من سوق الكتبيين المقابل للنقليين وأخذوا في لم الطوب المتناثر على الأرض وأعادوا رجم

(1) القيسارية: عبارة عن بناء مستطيل أو مربع به عدة أبواب، وتشغل الواجهات الخارجية له حوانيت يتفاوت عددها من واجهة إلى أخرى حسب المساحة واتجاه الطرق المطلة عليها، ويؤدي الباب الرئيسي إلى ساحة تفتح عليها حوانيت أخرى، ويعلو الحوانيت الداخلية والخارجية مساكن علوية «ربع» لسكن التجار.

الموكب به، وكانت البارقة.... تحولت الساحة إذ فجأة إلى مشهد عبثي من المقام الأول، فما كان من العامة إلا أن التقط كل رجل أو امرأة أو شيخ أو صبي أقرب ما وجده إليه وانهالوا ضربا ورجما على حامل الميزان والخدم والجلاد وحتى المحتسب. تعثر المحتسب عدة مرات قبل أن يسقط سقطة مدوية، وانهالت النساء عليه بالقباقيب والخِفاف. لم يسع الرجل إلا أن يغطي رأسه بيديه اتقاءً من هول الضرب.

فر الخدم وحامل الميزان بعد أن سرق منهم حمولتهم من ميزان وهدايا ومغارم كانوا قد جمعوها من التجار في الخط. أما الجلاد، فهجم عليه الصبيان وجردوه من مئزره الذي هو الشيء الوحيد الذي كان يلبسه ويستر به عورته وربطوا قدميه ويديه بقطع كانوا مزقوها من المئزر وغموا عينيه وأخذوا سوطه وراحوا يجلدونه به والعبد الأسود الذي طالما أرهب التجار والعوام بعضلاته المفتولة وتكشيرته المهولة وزئيره الهادر، كان قد أضحى طفلًا ضعيفًا. أخذ يتعثر في كل خطوة يخطوها وينحب نحيب الطفل الذي فقد والدته في مولد أو سوق مزدحم. انهمرت الدموع من عينيه وساد الجمع الضحك من منظره. أخذ الجلاد في الفرار والدموع تسيل وصوت النحيب يبتعد رويدا رويدا والناس تدمع عيناها من فرط الضحك.

التفت الناس للمحتسب الذي ما زال مسجى على الأرض رافعًا ذراعيه إلى رأسه، رفعه الرجال عن الأرض، خلعوا عنه عمامته وملابسه وألقوها على الأرض وأركبوه بغلته ووجهه ناحية مؤخرته وجرَّسوه وصولا إلى أسوار القلعة. وكان الصبيان والغلمان يضحكون عن رحابة شدقيهم ويلقون النكات ويزفونه كما لم يزف لص من قبل.

حمام السلطان إينال

مع اختفاء آخر ضوء، كان جابر قد لملم حاجياته ومحمود قد أوشك على الانتهاء من إدخال الأجولة إلى الحانوت استعدادا لإغلاقه. رتب جابر هندامه معلنا عن بدء مشواره الثاني لهذا اليوم الطويل. وكان على الرغم من تعبه الواضح متحفزا ومتحمسا لهذا المشوار.

كان مشيا طويلا عبر خط بين القصرين إلى ما يقرب من نهايته من ناحية باب الفتوح. توجب عليه اجتياز الأسواق وآلاف الحوانيت التي كانت تغلق أبوابها الواحدة تلو الأخرى باستثناء حوانيت الجنزبيل التي كانت عامرة بصغار التجار حيث يبدأ السمر الليلي وسهرات المزاج. وكانت حوانيت الجنزبيل خاصة تلك التي تتوارى عن أنظار المارة شهيرة بتناول حشيشة الفقراء[1] بها وكانت هي الوسيلة الوحيدة للناس ليتهربوا من مصاعب الحياة وقسوتها ولإذهاب العقول في مدارات بعيدة عن هموم الدنيا.

---

(1) حشيشة الفقراء : نبات القنب، تقطف أوراقه وتمضغ فيكون لها تأثير المخدرات.

وعلى الرغم من إرهاقه الشديد إلا أنه قاوم الإجهاد علما منه بأنه يختتم يومه بأكبر متعة له وبقطعة من الجنة على هذه الأرض التي لا يستطيع تخيل حياته بدونها.

اخترق الخط إلى أن وصل إلى المدرسة البرقوقية وبعدها الكاملية وبدأت ابتسامة بلهاء ترتسم على وجهه. ابتسامة تنم عن ارتياح ووصول المبتغى. وصل إلى البناء الصغير وولج إليه من باب صغير هو أقرب ما يكون إلى شق في الحائط. ما إن اجتازه حتى بدأت السكينة تتسلل إلى عقله وجسده. دخل جابر حمام إينال وبعد مشية لا تتعدى بضع خطوات وجد نفسه في وسط المخلع[1] حيث استقبله مرزوق الحمامي.

- أنعم الله مساءك يا مرزوق ...كيف أحوالك؟

- نحمد الله يا سي جابر. ها نحن نكافح فالحياة أصبحت نارا والبلاء يأتينا من حيث لا نحتسب. ولكن ما العمل؟ الحمد لله على كل شيء.

- اللهم زدنا صبرا على المفترين يا رب. الجماعة هنا يا مرزوق؟

- وصلوا وهم في الإيوان في انتظارك.

---

(1) المخلع: بهو الحمام الذي يخلع فيه الناس ملابسهم استعدادا لدخول الحمام.

خرج سعيد الوقّاف[1] وناول جابر مئزرا[2] لستر عورته وهو في الحمام. خلع جابر جلبابه ولف المئزر حول خصره وخلع سرواله وناول سعيد ملابسه ليحفظها له لحين انتهائه من حمامه. اخترق جابر المخلع عابرا أسفل سقفه الجمالوني وشخشيخته الخشبية المطلية بلون أزرق سماوي وتوجه إلى فتحة صغيرة في آخر القاعة على جانبها الأيسر.

كانت الفتحة واطئة اضطرت جابر إلى الانحناء كثيرا للعبور منها والوصول إلى بيت أول[3]. كانت الردهة ضيقة جدا تسمح بالكاد لشخص في مثل حجم جابر بالتحرك خلالها.

عرج يسارا ليجد بيت أول على يمينه. دخل الإيوان ليجد مجموعة من الرجال يتسامرون ويتضاحكون على المصطبة الرخامية العريضة والتي تعلوها قبة ضحلة مثقوبة بجامات يغشيها الزجاج الملون. ألقى السلام بلا اكتراث واجتاز الإيوان. أحنى ظهره ثانية ليعبر من أسفل القوس الصغير إلى بيت الحرارة [4]. كان

(1) الوقاف : مساعد الحمامي.

(2) المئزر: رداء طويل يلف حول الخصر لستر العورة.

(3) بيت أول: هو أول إيوان يمر به الداخل وهو آخر إيوان للخارج للاستراحة قبل الخروج من الحمام.

(4) بيت الحرارة: هي القاعة المركزية في الحمام والتي يملؤها بخار الماء وعادة ما تتوسطها فسقية صغيرة ويتحلق حولها مصاطب وإيوانات.

بخار الماء يتصاعد من الأحواض ويعبيء المكان بأكمله لدرجة جعلت الرؤية متعسرة أول دخول القاعة. لم تمض ثوان معدودات حتى ألف جابر المكان واعتادت عيناه بخار الماء وبدأت ملامح المكان تتبين شيئا فشيئا.

كانت هناك مجموعة من الرجال متحلقين حول الفسقية الكبيرة أسفل القبة الملقومة بجامات زجاجية ملونة. وكان البعض الآخر ما بين مستلق على المصاطب المحيطة أو واقفا أمام الأحواض يغتسل بمائها أو يلطف من درجة حرارة جسده بصب الماء على رأسه وصدره. اخترق جابر القاعة وارتقى درجة صغيرة تاركا خلفه إيوانين صغيرين وتوجه مباشرة إلى ممر ضيق اضطر معه الدخول بجنبه.

تبادرت إليه نكات وضحكات أصدقائه الذين كانوا سبقوه إلى الحمام. كان جابر وحسين وسليمان ومنصور يلتقون يوميا بعد أذان المغرب في الحمام حيث يتسامرون ويتحممون من غبار اليوم ويهيلون عن أنفسهم هموم اليوم وبلائه.

كانت الليلة مقمرة وكانت أعمدة النور الصفراء والحمرء والزرقاء تخترق المساحة من السقف إلى المصطبة الرخامية التي كانوا جالسين عليها ملقية بظلال لطيفة على الحوائط والمصطبة التي ارتقى جابر درجاتها الثلاث. كان حسين قد احتل المغطس الصغير كعادته بينما الآخرون ما بين ممدد تحت أعمدة النور الملونة وما بين جالس ممددا رجليه أمامه وساندا ظهره إلى الحائط.

- كيف الحال يا أصدقائي؟

- تعالَ يا صديقي العزيز، لقد تأخرت كثيرا اليوم ...

قالها حسين وهو مغمض العينين مستمتعا بدفء مياه المغطس والراحة التي تبثها في جسده.

- ما لك مهموما وعابس الوجه؟ هذه الدنيا فانية ولا تساوي لحظة عبوس واحدة يا جابر.

- والله معك حق يا منصور.. ولكن الإنسان بطبعه ضعيف أمام المصاعب التي نعيشها كل يوم. حتى أكل العيش أصبح مرا وبتنا نتساءل كل يوم لماذا نعذب هكذا؟ وما الهدف من الحياة؟

- يا جابر لا تفسد علينا أمسيتنا وجمعنا هذا فهي المناسبة الوحيدة لنا لننفض غبار اليوم وبلائه من على أجسادنا ونلفظ هذه الأفكار الكئيبة من عقولنا. دعنا نستمتع إذًا بساعتنا هذه..

- ليت لفظ هذه الأفكار السوداوية كما تسمونها بسهولة غسل القاذورات من على أجسادنا يا سليمان. ألا تستمعون إلى نداءات المنادين والأخبار التي يذيعونها على الخلق؟ ألا تسمعون التهديد بالخوزقة لكل من تجاسر وتحدث في الشأن العام وانتقد مولانا السلطان ويستهزئ بقراراته؟

يعني لا نجد قوت يومنا ونتعرض للموت من جراء تفشي الفناء الكبير الذي بات يقترب من القاهرة يوما بعد يوم. نعيش بالكاد ونُمنع من التنكيت والتضاحك على أحوال البلاد ومن يتولون أمرها ويشرفون على شئونها.

أي عيشة هذه؟

- هاها ...

ضحك منصور ملء فيه حتى كان المرء ليظن أن فكيه كادا ينخلعان.

دعك من هذه التعاسة. الآن ساعة استرخاء وتناسي الهموم كلها... استمتع بالبخار ورائحة العطور. ما هي إلا لحظات ويأتينا مختار البلّان ويقوم بتكبيسك وتنظيفك حتى ترتخي عضلات جسدك بالكامل ثم نخرج لنحتسي كوبا من الجنزبيل الدافئ ونتبعه بزلابية من عند متولي شيخ القلّائين. وبعدها ستنام كما الرضيع بعد تناوله رضعة ما قبل النوم ثم تستيقظ غدا في أحسن هيئة.

ها.. ماذا قلت؟

- وهل أستطيع أن أتفوه ببنت شفة بعد كل هذه الإغراءات؟

- استمتع يا رجل ودعنا من هذا الهم... استمتع وانس همومك.

تحلقوا حول المغطس الصغير، يتندرون ويتسامرون كما اعتادوا متناسين هموم العالم خارج حدود الإيوان الضيق الذي جمعهم ولفهم ببخار ماء المغطس الذي بث في أجسادهم النحيلة دفئا لذيذا

كدفء نار في ليلة شتاء صحراوية قارسة البرودة. ساد الصمت المساحة الضيقة اللهم إلا من بضع تنهيدات ممطوطة ومكتومة. تنهيدات تنم عن الراحة والارتخاء. سكون، استمتاع بارتخاء العضلات والأعصاب.

تمتع بالسكينة والدفء اللذين يفككان هموم وآلام اليوم كله ويحيلها إلى زوال تكاد تراها تتبخر في هواء الإيوان الخانق، تطلق صرخات كتمت على مدار يوم كامل، آلام حبست وصفدت. ها هي الآن تصيح فرحا بتحررها من قيودها، تغني سعيدة بفك أسرها، بانطلاقها في سماء الحرية. يتخلص منها الجسد فيخلصها.

تُغمض الأعين، تتلذذ بالسكون، بزوال الآلام. تسافر الألباب إلى واحة ظليلة في وسط صحراء جرداء، واحة خضراء يظللها النخيل. نخيل مجتمع حول آبار المياه العذبة، آبار ترفرف من حولها الطيور الصداحة، مغردة في حرية وسعادة. نخيل يتطلع إلى سماء زرقاء صافية تتخللها سحب تتخذ أشكالا لا يحدها إلا خيال المتأملين. سحب تطالعهم على هيئة أسود تارة وفرس تارة أخرى. نخيل يلتحف سماءً حالكة السواد في ليل مزركش بنجوم كأنها درر وألماس على رداء ملكي.

تتفتح الأعين، تتراءى الابتسامات المرسومة على وجوههم، ابتسامة الوصول إلى المدى.

فغر جابر فاه فخرجت الكلمات مخترقة جدار الصمت:

- لا يمكن أن نبقى على هذا الوضع... كفانا خنوعا... كفانا !!!

استيقاظ

- يا رب سترك. يا ستار يا رب

انتفض جابر من نومه وفط من الفراش. أخذ «يتفتف» في عبه كما النسوان اتقاءً لشرور ما رآه في منامه. توجه إلى القلة الموضوعة بعناية عند حافة نافذة غرفته الصغيرة. تجرع القليل من الماء. تساقطت قطرات المياه على صدره المتصبب عرقا. جلس على حافة السرير. حاول استرجاع كل ما رآه في منامه. كل ما أفزعه. صور وخيالات تتقافز أمام عينيه. تخرج من عقله وتتجسد أمامه. ترتعد فرائصه. يعايش الحلم مرة أخرى.

يتوجه إلى صندوق الملابس. يخرج جلبابه. يرتديه. يتوجه صوب باب الدار قاصدا الشيخ مهدي. شيخ جليل يتخذ مجلسا له في سوق قبو الخرشتف يساعد كل محتاج. اشتهر في الآونة الأخيرة بتفسيره الرؤى والأحلام التي انتشرت في الحي.

خرج إلى السوق. كان اليوم في أوله فتيا تنبعث أسارير شمسه إلى شبابيك المنازل. حاملة رسائل طمأنينة. رسائل دافئة كدفء أشعتها الحانية. قصد الشيخ آملا أن يجد عنده تفسيرا لما أقلقه. كان الشيخ جالسا كعادته على دكته المنصوبة أمام باب منزله.

- مرحبا بك يا جابر. نرجو من الله أن تكون صحتك على ما يرام.

- نحمد الله يا مولانا على كل شيء. لكن من أين يأتينا الخير؟ حالنا كما تعلم. شقاء وعناء. أبواب الرزق موصدة في وجوهنا والحال كما تعرف صعب جدا.

- تفاءل يا جابر ولا تيأس من عدل مالك الملك.

قل لي، ماذا جاء بك إليَّ في هذا الوقت المبكر وأنت على هذه الحال؟

- جاءني في المنام حلم أزعجني. جعلني أنتفض من النوم وأفط من السرير. جئتك طامعًا في أن أجد عندك تفسيرًا يزيل ثقل غموض الأطياف التي حلقت حولي ليلًا.

- قص عليَّ إذًا يا بني ما رأيت وإن شاء الله أعينك على فك طلاسم ما رأيت من صور.

- رأيت يا مولانا فيما رأيت أنني أسير في شوارع المدينة. كان الدهر من حولي ليلًا قاتمًا. يطبق على صدري فلا أكاد أستطيع التنفس.

وكان أهل الناحية يبدو على وجوههم هم وكرب لم أعهده من قبل فيهم. كانت وجوههم مقطبة. رؤوسهم منكسة. نظراتهم عابسة. وكانت الطرقات موحشة. لا حياة فيها إلا من كلاب وقطط ضالة. الحوانيت على جانبي الطريق موصدة الأبواب. ثم جاءني صوت صراخ وتعارك. فإذا بأهل المدينة يتناحرون ويتقاتلون. عمت الفوضى كل شيء.

ثم فجأة لاح لي وجه القاضي حسين. كان وجهه يملأ الحلم حاجبا صور القتال. هلَّ وجهه، كان صبوحا مستبشرا، طلقا، منفرجة أساريره. أحسست براحة تغمرني. إحساس بطمأنينة يتلحفني. اختفى وجه القاضي. ثم ظهرت الحوانيت. كان حالها قد تبدل. فتحت أبوابها كلها. خرج الناس بعد أن كانوا مهمومين. مغمومين. خرجوا راكبين الخيول. يطوفون المدينة في عزة وسعادة واضحة.

ثم رأيت ساقية تجري بالماء من خارج المدينة إلى داخلها. يجري الماء صافيا، عذبا في أخدود عبر طرقات المدينة. ورأيت الناس يحمدون الله تعالى عليها. يشربون من مائها ويملئون آنياتهم منها.

ولما كانت الصور عجيبة الشكل، غريبة المعاني، اضطرب نومي. فاستيقظت متوترا. وجدت نفسي لاهث النفس. متصبب العرق. منكوش الشعر. فلبست جلبابي في التو وجئتك لتطئمنني.

- خيرا فعلت يا بني.

تفسير حلم جابر

كان وجه الشيخ قد تهلل وارتسمت على وجهه علامات الارتياح. عبرت ابتسامة عريضة مساحة وجهه. وفغر فاه في سعادة ظاهرة.

- اطمئن. قال الشيخ.كل ما رأيته ما هو إلا بشارة خير ورزق وفير بإذن الله.

أما عن المعاني، فاعرف أنك رأيت مدينتنا في المنام. رأيت حالها الكئيب الذي لا يخفى على أحد. فقرها المدقع. الجوع والموت في أرجائها المتمثلين في بؤس أهلها وكساد تجارتهم. الحوانيت المغلقة ما هي إلا كساد في الأمتعة وانغلاق مصدر الرزق والتجارة. هي سوء الحال.

فدبت الفتنة بين الناس وزاد البلاد اضطرابا وتوترا بسبب سوء الأحوال وزيادة الأسعار.

ولكن بقاء الحال من المحال كما تعرف.

فطلّ الأمل متمثلا في وجه القاضي حسين. تفاءل الناس. وعادت الحياة كريمة. فتحت أبواب الرزق والتجارة. زاد سكان المملكة عزا وجاها. فكانت الحياة الهنية والرزق الوافر.

فأبشر يا جابر... ألم أقل لك إن الله تعالى عادل كريم؟

كان الناس قد التفوا من حول الشيخ مهدي وجابر يستمعون إلى الحلم وتفسيره. ومع انتهاء الشيخ مهدي من فك طلاسم الحلم كانوا فاغرين أفواههم، غير مصدقين آذانهم، عاجزين عن تصديق أن الأمل معقود في غد أفضل حتى ولو كان في الأحلام.

كانت كلمات الشيخ مهدي مصدر إلهام وأمل لهم. كانت حبل الوريد الذي يربط الطفل بأمه، يربطه بحياة لا يعيشها، يمده بالحياة في عالم لا ينتمي له بعد. كانت العقول مشدوهة، سارحة، كل يفكر فيما قد يكون شكل هذا الغد الموعود، وما قد يحمله من خيرات وكيف تؤثر على حياته. كل يتخيل حبل الوريد الذي سيمدهم بالحياة التي لم يدخلوها بعد، فكلهم يعيش في ظلام دامس، في حياة لم تفتح عيناه فيها بعد. كانت كلمات آسرة، ساحرة، ملهمة، جعلت عقولهم تحلق في أبعاد جديدة.

تحمسوا لسماع البشرى. ارتسمت على وجوههم علامات تفاؤل وارتياح. تفاؤل بقدوم خير لا يعرفوا مصدره. لكنهم تفاءلوا. علمتهم الحياة الصعبة التمسك بأصغر بادرة أمل. التعلق بأصغر

قشــة تطفو على ســطح بحــر مــن الأهــوال وارتيــاح لعثورهم على شماعة يلقون عليها همومهم، تريحهم من حمل أعبائهم بأنفسهم.

لم يلبث الخبر أن انتشر في السوق كله، لم يترك بابا إلا وطرقه، اقتحم أحلام الرجال والنساء، بات تنويعات على لحن معروف، الكل يعرفه. قصة من قصص الأبطال. عنترة وابن ذي يزن. كيف وصلتهم؟ لا علم لهم. انتقلت من فرد إلى آخر إلى آخر، لكن كيف كانت البداية؟ كيف انتهوا جميعا بنفس النص؟ بلا أية اختلافات؟ لا أحد يدري.

النواة إذًا واحدة. لكن تعددت النسخ. كل حسب درجة تفاؤله. حسب حبه للحياة، تمسكه بها.

تكاثر حلم جابر

في اليوم التالي لحلم جابر، حدث أمر عجيب، استيقظ ساكنو منطقة السوق بالكامل في الوقت ذاته. فتحت الأبواب جلها مع إطلالة أول شعاع شمس. بعد أن كان الجميع لا يخرجون قبل الظهر.

فتحت الأبواب في اللحظة ذاتها. خرجوا. الكل يبحث عن الكل. في عيونهم نفس النظرة. نظرة نشوة، نظرة انتصار، نظرة ارتياح، التخلص من الهم، نشاط يجتاحهم، يملأهم حماسة وأملا. بعد لحظة من التلفت يمنة ويسرة، بعد برهة من التأكد أن كل واحد فيهم لم يكن الوحيد، غمر السوق ضجيج غير مألوف.كان الحلم قد أتاهم جميعا. الكل يتحدث في ذات الوقت. تتطاير الكلمات في شتى الاتجاهات، تتساقط بعشوائية في الآذان، تلتقط الأذن كلمة من الخلف وأخرى من الأمام، جملة مقتضبة من اليسار وأخرى أطول من اليمين. لا تستطيع تمييز مجمل القصة المتناثرة كالغبار في الجو، تتناقلها الريح فتقع بها في كل ركن، تلملم أشلاء القصص المختلفة، تدقق فيها، فيكتشف السامع أنها مع اختلافها واحدة. تصل الكلمات تباعًا بلا أي نسق أو ترتيب.

كلمات متطايرة

- أما أنا فرأيت ماء البحر غاض حتى ظهرت حافتاه...

- .. شاهدت بوما عظيما ...

- تساقط ثلج كثير في شهر الصيف...

- ... رأيت الملائكة يدخلون عليَّ في الجنة ويسلمون علي...

- أصابني جنون.

- ... وإذا بالجسر الترابي يصير مبنيا بالحجارة ...

- نحرت جملا...

- رأيت ستنا حواء عليها السلام ...

- خربت السلطنة.

- دجال...

- دعوت على الملك الظالم أن ...

- كان الملك قد قصرت قامته...

- ثم ظهر القمر في مشهد مهيب ليختم به منامي...

و ساد الصمت المكان ...

تقرير عن جابر

بيانات شخصية:

اسم المتهم : جابر الزعفراني

اسم الشهرة: جابر النقلي

العمر: 35 ربيعا

المهنة: نقلي

الإقامة: ربع بيبرس

التقرير:

من واقع مراقبتنا للمتهم السابق ذكره، تأكد لنا فيما لا يدع مجالًا للشك أنه متواطئ بتهمة الحلم بالتغيير. وتأتي تفاصيل حلمه مبشرة فقراء السلطنة بالعزة والرخاء ووفرة المال بعد أن كان الحال - وفقا لحلمه - كربا وكآبة.

ولقد اتصل المتهم بالشيخ مهدي ليفسر رؤياه. وبشره الشيخ بتبدل الحال. ولم يلبث الأمر حتى عرفه سكان الحارة أجمعون. تناقل الخبر بسرعة فائقة بينهم. تواتد الحلم وتكاثر بين الناس لدرجة أنه صار شائعا على مدار الأسبوعين الماضيين.

التوصية:

نرى في جابر مصدر خطورة قصوى على حكم مولانا والسلطنة نظرا لما يمثله من أمل ورمز يدعو للتغيير.

لذا نوصي بتطبيق أقصى عقوبة.

انتهى التقرير

قرار مولانا السلطان

توقع أقصى عقوبة على المتهم وينفذ الحكم فورا.

انتهى

بلا توقيع

بداية تنفيذ الخطة

- ماذا عسانا نفعل في جابر النقلي هذا يا نائبي العزيز؟

- جابر النقلي يا مولانا، أدام الله عزك، هو نقطة الانطلاق.

- أي انطلاق تقصد؟

- الانطلاق نحو تطبيق خطتنا. نحو الحد من ظاهرة الأحلام المهددة لكم ولسلطانكم يا مولانا.

- استمِر...

- يا مولانا رعيتك تخاف ولا تستحي؛ لذا وَجَبَ الضرب عليهم بيد من حديد. يجب توجيه رسالة شديدة اللهجة إلى كل من يتجرأ على أولي الأمر حتى لو كان في المنام.

- فماذا تقترح؟

- أقترح يا مولاي أن تأتي بالعلماء المُقْسِمين على الولاء لك وعلى طاعتك ونعمل على مصادرة هذه الأحلام وإحلالها بما لا يُنسى

من كوابيس ومنامات مرعبة. فيخاف الناس ويمتنعوا عن مشاركة رؤاهم مع سائر الرعية. فتتوقف ظاهرة الأحلام خوفًا ورعبًا.

- وكيف نبدأ؟

- أقول لك أنا يا مولاي ...

تعذيب جابر

تم اقتياد المتهم قبل أذان الفجر. مكبل اليدين، معصوب العينين، حبل معقود حول رقبته. اقتيد كما تساق البهائم في الغيطان. رُكِل وضُرِب على قفاه كلما تأخر لتعب أصابه.

ظل على هذا الحال إلى أن وصلوا. أين؟ لا يعرف... لن يعرف. لكنه أحس أن النهاية ستكون مغايرة لما بشره به الشيخ مهدي. تأكد له ذلك من رائحة الدم التي تسود الغرفة التي أقحم فيها. غرفة رطبة. عفنة. عرف على التو أنها قريبة من النهر. مستواها أقل من منسوب ماء النهر. رائحة الخوف فواحة. قوية. حاضرة. لا يمكن أن تخطئها. سادت أصوات أنين لا تنقطع صمت الغرفة. أصوات كأنها مقطوعة موسيقية لعازف مبتدئ. شديدة الرتابة. لكنها في الوقت ذاته شديدة الحزن. عرف أنه لم يكن وحده، أن في المكان آخرين. لعلهم نالوا نفس المصير الذي ينتظره، لا يدري ...

ترى هل يتركونه هنا؟ يصطحبونه إلى غرفة تعذيب منفردة؟ يعذبونه على مرأى ومسمع من الآخرين في ذات الغرفة؟ بدأت الأفكار والمخاوف تصول وتجول في رأسه. حائرا. متسائلا: من الذين اقتادوه إلى هذا المكان؟ ماذا يريدون منه؟ لماذا؟ أسئلة كثيرة بلا أجوبة. لحظات قليلة مرت. فتح باب الغرفة. أحدث دويا عظيما.أصوات أقدام كثيرة. اقتربت منه. أحس بيد فولاذية تمسك بتلابيبه. جذبته إلى أعلى ليجد نفسه واقفا. امتدت عدة أيادٍ أخرى لتجره خارج المكان.

صوت الباب يغلق من جديد. نفس الصوت المدوي.

اقتيد إلى غرفة أخرى. لا صوت فيها. لا يصلها صوت. ألقي على الأرض.

لأول مرة منذ خروجه من منزله يسمع صوتا بشريا موجها إليه. خرجت الكلمات كسهام مصوبة إلى قلبه:

- أنت متهم بمحاولة زعزعة النظام والإطاحة بمولانا السلطان. سننفذ فيك الحكم فورًا.

- أنا؟

- هل تنكر؟

- لكني رجل بسيط. أكدح وأتعب لأوفر قوت يومي. لا شأن لي بالإطاحة والزعزعة.

- لقد حلمت بتبدل الحال وأن رعية مولانا تمر من فقر مدقع إلى رخاء.

- لا أفهم. ما علاقة ذلك بـ...؟

- هل تنكر أنك حلمت؟

- لا طبعا. لكن...

- هل رأيت في حلمك حدوث فتنة؟

- نعم، حدث...

- إذًا أنت تشجع الناس على الانقلاب على حاكمهم لتحسين أوضاعهم. سننفذ الحكم الذي يمليه القانون.

- قانون؟ أي قانون؟ قانون يمنعني أن أحلم؟

- نفذوا الحكم...

كان الأمر هو آخر صوت بشري يسمعه. طغى صوته على كل شيء آخر. طغى حتى على صوت عقله. شل تماما. لم تعد أي فكرة تتهادى في رأسه. أُسِرَت جميعها. كُبِّلَت. صُفِّدَت. كل ما كان يجول في رأسه كان الألم. ألم لم يعهده. لم يتخيل أنه موجود من الأساس. حل الظلام على كل شيء من حوله.

تحرك الرجال بهمة ونشاط بالغين. أتوا بكرسي. كتفوه. قيدوا قدميه. يديه. جذعه. تأكدوا من عدم قدرته على الحركة. لا مقاومة ممكنة.

أتوا بالمعدات... مشرط، مقص، أداة ثقب، أنبوب زجاجي طويل ورفيع، ثم الأداة. كانت فخر أمن السلطنة، اختراع فعال، صُمِّم خصيصًا تلبية لرغبة سلطان البلاد مما جعل من هذا الجهاز الأمني موضع ثقة وتقدير مولانا.

أداة فعالة، بعد الثقب والقص تدخل في مؤخرة الرأس، تجتاز المسافة الأولى بسهولة نسبية، تصل إلى غايتها. هنا مكمن الصعوبة الحقيقية. الوصول إلى منطقة الذاكرة، تحديد مكان الحلم، رؤيته بأعين المحققين. بعد الفحص والتأكد، يُسحَب نهائيًا ويتم القضاء عليه. ثم تأتي المرحلة الأخيرة، الجزء الأهم حتى تكتمل أركان الخطة، إبدال الحلم المُصَادر بحلم آخر أو كابوس بالأحرى، لكنه ذو طبيعة خاصة، مُعَد سلفا، لا يُمحى، يسيطر تمامًا على فكر العقل المُضيف، يستحوذ عليه، يُحيله عبدًا للحلم. في الواقع هو ليس حلمًا، هو حلم يصير واقعًا، واقعًا كريهًا، مرعبًا، يحيل حياة من يتلبسه إلى جحيم. هو الانتقام الأمثل. الأكثر فعالية. الناس أسيرة أفكارها. وها هو، الضحية الأولى، أسير هذه الفكرة المزروعة في ثنايا مخه.

العملية دقيقة للغاية. يتم إدخال عنصر كيميائي لا يعرف تركيبه إلا شخص واحد، يدخل بمقدار نقطة واحدة. نقطة لا تزيد. يتم

إدخالها من خلال الأنبوب المسلط على منطقة الحلم المطلوب القضاء عليه. أي خلل أو خطأ قد ينجم عنه عواقب وخيمة لا يستطيع تقديرها إلا مُسيِّر الأمور ومبدع الكون جل جلاله. إلى جانب خطر القضاء على حياة إنسان، فهناك أيضا خطورة كشف الخطة وإفشالها تماما مما يقضي على حكم السطان. الدقة إذًا مطلوبة، بل واجبة.

تمت المصادرة، ثم التدمير. الآن الإحلال. حلم جديد، حلم يشل التفكير، يصيبه بلوثة. يأتي الحلم في وعاء محكم، موضوع في صندوق خشبي مغلق بقفل حديدي ضخم، لا يلم أحد بسر الوعاء إلا والي الشرطة والعلماء الذين يعدون الكابوس. يمدهم والي الشرطة بمكونات الكابوس، عناصره، فيُعملون علمهم ومعاملهم لإنتاج المركبات التي تؤدي إلى النتيجة المرجوة. مركبات تتلاعب بالمخ، تملؤه بالهلاوس والصور. بعد الاستقرار، تتحول إلى واقع يعيشه، يكاد يلمسه، يخرج الكابوس من إطار العقل إلى نطاق الحياة. هو واقع تراه، لكنك لا تلمسه، خيالات وأطياف تتراقص أمام ناظري المعتل.

- ابدءوا الزرع ...

يسلم والي الشرطة الذي يشرف بنفسه على كل عملية. مفتاح القفل... يفتح الصندوق الخشبي، يُخرِج الإناء في طقس شبه

جنائزي، تُفتح السدادة. الأعين مسلطة على الذي سيخرج منه، يعم الهدوء المكان ويسوده. يدخل الأنبوب في عنق الإناء، يتوغل بخار المُرَكَّب من الإناء إلى المسبار، يتسرب منه إلى نقطة الذاكرة، النقطة ذاتها، نفس الدقة المطلوبة. لا يُسمع نفس، حالة ترقب، توجس وقلق، تتكثف قطرات العرق على الجبين، بعد كل خطوة تسمع زفرات ارتياح. تُجَفَّف قطرات العرق. يتم الإعداد للخطوة التالية...

لحظات قليلة. بدأ الجسد يرتجف، امتدت يده أمام عينيه في وضع دفاعي، يحاول أن يمنع عن نفسه عدوا لا يرونه.

نجحت المهمة.

خرج الرجال بنفس الرتابة التي دخلوا بها.

* * *

جاء الحكيم ضمد الجرح. خاط الثقب. ورحل ...

* * *

أفاق..

كان في ذات الغرفة. ملقى على الأرض. تحيط به بركة من الدماء اللزجة. الساخنة. ألم رهيب في مؤخرة الرأس. هل ضرب؟

لا لم يكن ألم ضرب. لم يكن رأسه متورما. إحساس غريب. كأن الضرب كان من الداخل. لكن ذلك لا يعقل.

ألم في مؤخرة الرأس.

لكن من أين جاءت بركة الدماء هذه؟

جسده بالكامل سليم. تفحصه لزيادة التأكد. لا آثار لضرب. لا آثار لوخز أو طعن. لا آثار لجلد...

ماذا حدث إذًا؟ دماء غيره؟

انتابته الحيرة. عاوده الإحساس بالألم. كيف يكون من الداخل؟

تحسس مؤخرة رأسه. كل شيء سليم. تحركت أنامله بخفة هبوطا من أعلى الرأس. تردد... شيء غريب. عاد بأصابعه صعودا حتى وجدها. كان صغيرا للغاية. مخبأ بعناية. لم يكن هو ما لفت انتباهه. لا. كان نقص الشعر في المنطقة المحيطة به. تلمسه. ثقب صغير للغاية في أسفل الرأس. خيط ليلتئم الجرح.

هذا إذًا هو سر الألم؟ مؤكد. لكن ما الذي حدث تحديدًا؟

كابوس جابر

- سنبدأ يا مولاي بتحويل حياتهم إلى جحيم : سنقلل الأجور ولا نزيدها. فيصبح الشغل الشاغل لهم هو تدبير لقمة العيش. سنجعل من حياتهم عذابا يوميا، عذابا دائما. عذابا يتمنون أن ينتهي في أسرع وقت ممكن، لكن في ذات الوقت نجعلهم يوقنون أن مجرد توقف هذا العذاب اليومي معناه فناءهم.

- تروق لي أفكارك . هيا أرني الهمة إذًا...

- راقب و شاهد يا مولاي:

أبناء 5 شركات هتفوا أمام الشعب: بلادي بلادي.. مش بلاقي قوت ولادي.

2 مايو 2010

- هل صحيح يا نائبي العزيز أن هناك موظفين في مصر يتقاضون 99 جنيها في الشهر؟

- نعم يا مولانا السلطان، وهذا جزء من تدبيرنا لنضعف همتهم ولنلهيهم عن شئون السلطنة. ولكن يا مولانا السلطان هذا ما يعرفه عامة الناس، أما الواقع المرير فهو أشد قسوة:

خالد علي: الحد الأدنى للأجور 35 جنيها رغم حصولنا على حكم قضائي.

26 ديسمبر 2010

48٪ ممن يعملون بأجر يقعون في خانة الفقراء.

1 مايو 2010

- بل وإن نصف الأسر في مصر دخلها لا يكفيها.

- يا لك من داهية. لم أعهدك على مثل هذه الدرجة من المكر والدهاء.

- أشكر مولانا على ثقته بي وعلى حسن ظنكم بنائبكم المتواضع. ودعني أطمئن مولانا أن ما هذا إلا البداية .

- عمل متقن يا نائبي الداهية. والآن أصبح الجميع مهمومين بلقمة العيش ولعلهم مضطرون للعمل ساعات أطول أو في عدة مهن مختلفة لزيادة دنانيرهم. فينشغل الناس عن مطالبهم. فهم بين شقي الرحى.

- هذا توصيف غاية في الدقة والحكمة يا مولاي. هو فعلا كذلك. لكن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد.

- ماذا عساك أن تفعل؟

- زيادة في الحيطة ما رأيكم في إجراءات إضافية مثل رفع أسعار السلع بلا هوادة أو رحمة حتى يصيح الناس: «أسعار الغذاء نار»..

ارتفاع أسعار الزيوت 12٪ تأثرا بالزيادة العالمية.

16 يناير 2010

البصل والبطاطس والطماطم «طلعوا روحنا» من ارتفاع أسعارها.

6 فبراير 2010

ارتفعت أسعار الأرز بنسبة 10٪ أخرى ليصل مجمل الزيادة منذ منتصف الشهر الماضي وحتى الآن إلى 30٪ ..

15 يونيو 2010

- ثم نضع أسعار السلع في سباق غير متكافئ مع الأجور :

دراسة لغرفة الجيزة : في 8 سنوات زادت الأجور 120٪ مقابل 279٪ في أسعار الدواجن و186٪ للأرز.

17 يوليو 2010

- عمل رائع يا نائبي.

- لكن يا مولاي ما زال للموضوع بقية.. سنملأ الأرض شائعات عن عجز في المحاصيل...

- فماذا؟

- فيقوم التجار الجشعون برفع الأسعار...

المستهلك وحده سيدفع ثمن تضارب التصريحات بين الشركات المنتجة للسكر والتجار حيث ستشهد السوق ارتفاع سعر الكيلو من 4 جنيهات إلى 450 قرشا للمستهلك في غضون أيام قليلة...

3 يناير 2010

- وبينما الناس منشغلون في محاربة التجار الفاسدين، نقوم برفع الأسعار المرة تلو الأخرى دون أن ينتبه أحد، وإذا انتبهوا فسيتم اتهام التجار في كل مرة.

يبدأ اليوم «السبت» تطبيق الزيادة الجديدة على أسعار السلع التموينية بعد أن قررت الحكومة بشكل مفاجئ توحيد سعر صرف الزيت الأساسي والاحتياطي على البطاقات التموينية بواقع 3 جنيهات للتر بدلا من جنيه وكذلك توحيد سعر صرف السكر الإضافي والأساسي بجنيه بدلا من 60 قرشا.

2 مايو 2010

ارتفعت أسعار طن السكر 150 جنيها ليقفز إلى 4400 جنيه ووصل معدل الارتفاع منذ انتهاء عيد الفطر المبارك إلى 550 جنيها..

25 سبتمبر 2010

.. وارتفعت أسعار الزيوت بنهاية شهر أغسطس 10٪ نتيجة لارتفاع الأسعار العالمية للزيوت ..

17 أكتوبر 2010

السكر يقفز إلى 5.6 جنيه للكيلو.

26 نوفمبر 2010

- لكن ألا تعتقد أن كل هذا يكفي؟

- يا مولاي يجب أن تعلم أن الرعية لن تهدأ إلا إذا قهرتهم وفرضت سلطانك عليهم بالقوة. وإن لم تفعل تمردوا وتنكروا. ولكي لا يلتفت أحد منهم لشئون البلاد ويعرض عرشك للخطر فأنا أقترح عليكم: أن نستمر في نشر توقعات باستمرار زيادة الأسعار...

توقعات بارتفاع تضخم يوليو إلى 15٪

10 أغسطس 2010

مصدر حكومي يتوقع ارتفاع المكرونة 100٪

11 أغسطس 2010

- فيستغل كبار التجار الجشعين الموقف...

الأسعار تحقق أكبر زيادة شهرية خلال عامين و تقفز 2.3٪ في يوليو

11 أغسطس 2010

.. 45٪ زيادة ثانوية في أسعار الخضراوات و33٪ للحوم والدواجن

15 سبتمبر 2010

واصلت أسعار الخضراوات والفواكه ارتفاعاتها المستمرة خاصة في المحافظات وكان الارتفاع الرئيسي من نصيب الطماطم التي وصل سعرها إلى 15 جنيها للكيلو.

8 أكتوبر 2010

إنتاجية الفاكهة في مصر انخفضت بمعدل 70٪ والأسعار ارتفعت 300٪

10 أكتوبر

الطماطم ارتفعت إلى 20 جنيها والسكر إلى 7 جنيهات

31 ديسمبر 2010

- والآن يا مولاي أصبحت الرعية غير قادرة على التمرد. فهم مستضعفون من قلة التغذية ومن كثرة العمل. يدورون في حلقات

مفرغة كل يوم من أجل لقمة عيشهم. لكن علينا الاحتياط. ففي مثل هذه الظروف يشتد الأزر والتكاتف الاجتماعي. يجب علينا القضاء على أي محاولة لإعانة القادرين للمحتاجين. يجب أن نقضي على حلم الفقير الوحيد الذي يتوق له كل عام مرة:

واصلت أسعار اللحوم الحمراء الارتفاع خلال الأيام الماضية في جميع أنحاء الجمهورية حيث ارتفعت أسعار اللحوم البلدية بنسب وصلت إلى 40٪ للبلدية و75٪ للمستوردة.

20 مارس 2010

5 جنيهات زيادة في سعر كيلو اللحم خلال أول 3 أيام في رمضان.

تحذير من وصول السعر إلى 200 جنيه بسبب استمرار ذبح البتلو

15 أغسطس 2010

«حتى المستوردة غليت 3 جنيهات في الكيلو.. دول مش بيرحموا يا مدام».

أسعار اللحوم تقترب من حاجز 100 جنيه

20 أغسطس 2010

- حتى اللحوم؟ إنها بهجة الناس الوحيدة. ينتظرونها من العام إلى العام.

- اللحم يا مولانا هو وقود الصبر. فهو ما يمدهم بالجلد والقوة. إنه يا مولانا ما يقوي شوكتهم و يزيد من عزيمتهم. إن الصبر على البلاء إنما هو مستمد من الصبر من العام للعام من أجل الشيء الوحيد الذي يثقون أنهم سيحصلون عليه. ولذا يعيشون من أجل هذا الوعد. من أجل هذا الأمل. فإذا قضينا على الأمل في المحتوم، ضعفت الهمم وفقد الأمل في المجهول. والأمل يا مولانا السلطان هو الشيء الوحيد الذي يفوق في قوته الخوف.

ويجب يا مولانا السلطان أن تكون ملما بخبث رعيتك فهم لن يلبثوا أن يبحثوا عن بديل للحم، فهم بمكرهم ودهائهم معروفون ومذكورون في سائر كتب المؤرخين. لذا يجب القضاء على أي بديل قد يلجأ له الناس :

بعد اللحوم .. عدوى ارتفاع الأسعار تصيب الدواجن والأسماك

9 أبريل 2010

- أنا لا أصدق ما أسمع ... أين كنت تخفي هذا العقل الجهنمي؟

- إن هذا يا مولاي ما هو إلا بفضل احتضانك لي ورعايتك الكريمة.

- احكِ لي إذًا، ماذا تخفي في جعبتك بعد القضاء على حلم اللحم؟

- سترى كل شيء يا مولاي في حينه...

* * *

زكية

زكية

تخرج زكية من ربع الكتبيين - حيث تسكن - إلى الشارع مرتدية المئزر[1] فوقه قميص طويل ذو أكمام واسعة وتلتحف ببغلطاق[2]، عصابة على الرأس، برقع لتغطية الوجه - حتى لا تثير فتنة بين الرجال - وخُف جلدي متهالك التصقت به الأتربة وسواد الطرق في القدم.

خرجت زكية من الربع إلى خُط الزهومة، تقطع السوق ومنه تنحرف يسارًا إلى درب السلسلة مرورا بحوانيت وقف الصالحية إلى اليمين، تمشي مسافة وجيزة ثم تنعطف يمينًا إلى رحبة بيبرس. تحس أخيرًا براحة نفسية.. ما أروع هذه الرحبة ووسعها.. مبانٍ قليلة

---

(1) المئزر: ثوب يحيط بالقسم الأسفل من البدن.

(2) البغلطاق: كلمة من أصل فارسي معناها معطف.

تتخللها أشعة الشمس الصباحية اللطيفة ونسيم الصباح المنعش الذي يدغدغ صدغها.

تلج يسارًا إلى حارة العدوية مخترقة بابها الضخم المفتوح على مصراعيه في مثل هذه الساعة. تمر بجوار فندق الزمام وتدور مع جداره يمينًا. يلزمها الجدار إلى أن يُسلِّمها إلى درب الطاووس والذي يحملها مباشرة إلى حمام الساباط، محل عملها.

دفعت زكية باب الحمام ودلفت إلى باب المسلخ[1]. كان بهوا لطيفا، رشيقا يتوسطه فسقية رقيقة ينساب منها الماء في وداعة وخفة ينسى معها الداخل ضجيج الأسواق المحيطة وعالم البشر بإزعاجه وأصواته العالية المنفرة. بمجرد الدخول، كانت زكية تنتقل من عالم إلى آخر لا يفصل بينهما إلا باب خشبي متهالك. لا ينقلها عبر هذين العالمين إلا خطوة واحدة. خطوة هي - بقدر بساطتها - البراق الذي تركبه زكية ليقلها إلى عالم التأملات والأحلام. عالم نوراني تطوف فيه الملائكة بين زخات الماء المتدافعة بخفة وليونة من الفسقية وبين أعمدة البخار التي تصبغها الجامات الزجاجية الملونة المتناثرة في القباب الصغيرة التي تزدان بها الأسقف. نجوم صغيرة ترسل بأضوائها في الحمام فتجعل الحالم يزداد أملا بإمساكه بواحدة منها. تخترق أعمدة النور الملونة السقف فتضفي بهجة وراحة على مرتادي الحمام.

(1) المسلخ: أو المخلع هو مكان خلع الملابس قبل دخول الحمام.

تناثرت حول فسقية المسلخ مصاطب مفروشة بالبسط والوسائد الملونة والكثة تدعو إلى الارتماء في أحضانها.

تخلع زكية بغلطاقها وتلقي به على مصطبة قريبة وتتوجه إلى أقرب مقطع[1] لتبدل ملابسها استعدادا للعمل. كان الحمام في مثل هذا الوقت المبكر ما زال خاويًا من رواده ولذا أمكن لزكية استخدام المقطع حيث إنه في الحالة الطبيعية يكون مقصورا على مرتادي الحمّام من النساء.

ولجت إلى بيت أول ومنه إلى بيت الحرارة بفسقيته المركزية والقبة الكبيرة عبر دهليز طويل هزيل تسللت من خلاله كما ينزلق الجنين من رحم والدته في لحظة الخروج. كل مرور من هذا الدهليز هو خروج لها. خروج من عالم إلى آخر، من واقع إلى حلم، من حقيقة إلى خيال. كل خروج هو ولادة جديدة لها.

توجهت إلى أقرب إيوان وبدأت في تحضيره وتهيأته. رصت قوارير الزيوت والعطور اللازمة لعملية التنظيف والتدليك. بعد انتهائها من المهمة انتقلت إلى الإيوانات الثلاثة الباقية وأعادت الكرة في كل واحد منها. ما أن انتهت حتى بدأت جلبة السيدات تصل إلى آذانها إيذانا ببدء العمل الشاق والاستماع إلى المزيد من القصص والعجائب من مرتادات الحمام.

حان وقت الخروج من عالمها والدخول إلى عوالم جديدة.

(1) المقطع: غرفة صغيرة مخصصة لخلع الملابس.

حواديت نساء الحمام

تحلقت النساء حول فسقية بيت الحرارة.

- هل أدركتكم أزمة الأسعار الأخيرة؟

- و من لم تدركه هذه الأزمة؟

- لقد تحولت الحياة إلى جحيم... هل تتخيلي أن سعر إردب القمح أصبح ثلاثمئة وستين درهما بدلا من ثلاثمئة؟ وأن إردب الشعير صار ثلاثمئة درهم بدلا من مئة؟ ونفس الشيء بالنسبة للفول؟

- شيء لا يعقل... لقد سمعت أن السلطان أمر بإخراج الغلال من الشون السلطانية لمعالجة أزمة نقص الغلال وارتفاع أسعارها في الأسواق...

- هل سمعتم آخر المراثي في الخبز؟

قسما بلوح الخبز عند خروجه ... مـن فرنـه ولـه الغـداة نـوار
ورغائـف تروقـك وهـي فـي ... سـحب الثفـال كأنهـا أقمـار
من كل مصقول السوالف أحمر ... الخديـن للشـونيز فيـه عـذار
كالفضـة البيضـاء لكن يغتدي ... ذهبـا إذا قويـت عليـه النـار
تلقى عليـه في الخـوان جلالة ... لا تسـتطيع تحـده الأبصـار
فـكأن باطنـه بكفـك درهـم ... وكأن ظاهـره لونـه دينـار
مـا كان أجهلنـا بواجـب حقه ... لـو لـم تبينـه لنـا الأسـعار
إن دام هذا السعـر فاعلـم أنـه ... لا حبــة تبقــى ولا معيــار[1]

- لقد رأيت بأم عيني جلاد المحتسب يضرب ويجلد الخبازين والطحانين الذين امتنعوا عن البيع وأنذرهم المحتسب بفتح حوانيتهم وتوزيع الخبز بالمجان على الناس وإن عاودوا الامتناع فسيقوم بنهب محلاتهم.

- المحتسب؟ هاها، لا شك أنك تمزحين. ألم يُضرَب هو وموكبه بالكامل في السوق بالأمس؟

- نعم لقد شهدت هذه الواقعة بأم عيني.. لقد كان منظره مثيرا للضحك حين قام الأطفال بتجريسه وإركابه بغلته بالعكس.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 2، ص 32. (بولاق).

- هذا الرجل ظالم ومفترٍ وكلنا نعلم أنه لا يعرف حتى الحساب وأنه اشترى منصبه من والي القاهرة وأنا سعيدة بما جرى له. فهو لا يدع رحمة الله تنزل على صغار التجار ويستولي على بضائعهم التي يبيعها لحسابه بأضعاف السعر أو يقدمها على سبيل العطايا لمتولي حسبة الديار المصرية.

- أكثر ما أخشاه أن تتسبب محاولة السلطان في خفض أسعار الغلال في اختفائها من الأسواق فتسود المجاعة من جديد وتكثر على إثرها الوفيات فتنتشر الجيف في الطرقات وتنتشر الأوبئة وندخل في حلقة مفرغة من المآسي التي لا تنتهي.

- وما الحل إذًا؟ كيف يكون الخلاص في مثل هذه الحالة؟ أننتظر أن نفنى جميعا؟

- الحل الوحيد هو حدوث معجزة.

- و من أين تأتينا مثل هذه المعجزة؟

- أن يفيض النيل وينقذنا من هذا الجفاف الحاد...

- أو أن يأتينا مهدي منتظر...

- هل سمعتم بقصة حلم جابر النقلي وتفسير الشيخ مهدي له؟

- نعم، ولكني لست أدري لماذا يثير الناس كل هذه الضجة بخصوص حلم عادي جدا؟

- هذا الحلم ليس عاديا بالمرة...

- لا أفهم كيف يكون غير اعتيادي...

- هذا الحلم هو باعث للأمل لكافة الناس، فهو يحمل بشارة بانفراج الأزمة وانتهاء الأزمة التي نحن فيها.

- و هل تصدقين مثل هذه الترهات؟

- و هل لنا من مخلص غير هذه الترهات على حد تسميتك؟

- لا أعرف...

- ماذا لدينا لنخسره؟ فلنحلم فإن لم يتحقق الحلم فعلى الأقل نكون قد استمتعنا به ولو ليلة واحدة ثم نسترجع هذا الحلم كلما مررنا بضائقة أو كلما اشتد الحال. لنحلم، فالحياة أشد قسوة من أن نحياها في وحدة وعذاب...

حلم زكية

انتفضت زكية من نومها فجأة وكأنها قد رأت شبحا مخيفا. جلست في فرشتها قليلا تحاول استيعاب ما حدث لها، شردت لحظة تحاول استرجاع الصور التي جاءتها واستجماع قوتها للقيام من مخدعها. زارها حلما في المنام، كانت الصور متداخلة ومتشابكة، معان كثيرة لم تفهمها وكانت بلا شك تحتاج استيضاحها ولكن من يمكنه مساعدتها؟

جاءت الإجابة بدون أي تردد: الشيخ مهدي...

قامت من جلستها، ارتدت ملابسها وخرجت من الربع متوجهة إلى سوق قبو الخرشتف. كانت الأنباء قد ترددت منذ أيام عدة عن حلم جابر والذي كان أشبه بالنبوءة. انتشرت قصة الحلم وما قام به الشيخ مهدي من تفسير له. كان الرجل صيته قد ذاع في الآونة الأخيرة ولكن تفسيره لحلم جابر كان قد صنع منه شيخا له بركات ومرتادين يتوجهون إليه لحل مشكلاتهم ما كبر منها وما صغر.

توجهت زكية إلى السوق ولم تجد أي مشقة في العثور على الشيخ مهدي. كان قد اتخذ مجلسا على مصطبة فرشت بالبسط والوسائد، متكئا عليها، واضعا كتاب الله إلى جانبه، ممسكا في يده اليمنى مسبحة صغيرة يحركها بخفة ومهارة بين أصابعه، محركا شفتيه بأسماء الله، مسبحا ومحوقلا بين لحظة وأخرى وكأنه يلتقط أنفاسه.

توجهت إليه زكية بلا تردد:

- أسعد الله صباحك يا شيخ مهدي.

- أهلا يا زكية يا ابنتي. نرجو من الله أن تكون أحوالك على خير ما يرام.

- نحمد الله يا شيخنا الجليل وأدام الله في صحتك وعمرك.

- أشكرك. كيف لي أن أساعدك يا ابنتي؟ أتوقع أنك جئت في طلب المشورة، أليس كذلك؟

- نعم يا شيخ مهدي، جاءني حلم في المنام عجزت عن فهمه وفك ألغازه لذا قدمت إليك لعلك تستطيع تفسيره لي وإراحة قلبي من الحيرة والقلق.

- اجلسي يا زكية واحكِ لي ما رأيتِ وإن شاء الله تكون رؤية طيبة.

سحبت زكية وسادة وألقتها على بساط على مقربة من مصطبة الشيخ مهدي، وكأنه كان مجهزا لاستقبالها. جلست على الوسادة وشرعت في حكي ما جاءها في المنام...

- كنت سائرة في البلاد وإذ بي أمر بقوم يجور بعضهم على بعض حتى أصابوا بعضهم بكثير من الأذى.تعجبت من هذا المنظر. ظللت سائرة مستغربة ماحدث ببني جلدتي، كيف يتعدون على بعضهم البعض؟ مشيت هائمة على وجهي، منفطرة القلب، مهمومة وإذ فجأة، خرج عليَّ أسد من موضع لم أتبينه، قطع علي الطريق ووجدت نفسي وجها لوجه معه، رمقني بعينيه، ثبتني بنظرة مخيفة، لا توحي بالخير. ارتعدت، لم يسعني إلا أن أتخذ عدة خطوات إلى الخلف، نظراته مسلطة علي، يحاول من خلالها السيطرة علي، ناظرا في عيني مباشرة. يحاول إرباكي. لكني في خضم هذا التوتر، هدَّأتُ من روعي، تمالكت نفسي، استجمعت شجاعتى... حدجته بنظري وأذّنت على الأسد وبطانته التي لاحت من خلفه.

ثم رأيت نفسي أستل سيفي وأقاتله. اجتمع الجند من حولي. وقاتلت الكفار الذين ملأوا المعمورة. شغلوا أركانها كافة. حاربتهم وحدي. ضربت بسيفي يمينا ويسارا.

في أثناء الأحداث، إذ بـي ألمح جارية صبيحة، شديدة الجمال، أو هكذا بدت في هذه الأوقات المتوترة، ترتسم على وجهها ابتسامة آسرة، بساطة التعبير، رقته، رشاقة الجسد، أكاد ألمسه، ملمسه الحريري، تواضع هيئتها وأناقتها في ذات الوقت. كان المشهد في مجمله أخاذا، مبهرا، ثم توارى طيفها رويدا رويدا.

ومن طيات الطيف خرج كائنًا نورانيًا. وهج لاح من شتى أرجاء السلطنة. فملأ نوره الأرض. وإذ بنبي الله داود عليه السلام يَلُوح عليَّ من الأفق، يطل على السلطنة ويخرج من تحت جناحه راع، يتبعه غنم أسود ومن خلفه غنم أبيض.

ولما كانت الصور التي لاحت لي كثيرة ومبهمة، أقلقتني. اضطرب نومي وقفزت من سريري أستغفر الله وأعوذ به من الشيطان الرجيم. وها أنا ذا أمامك يا شيخنا لتفسِّر لي المعاني ولتثلج قلبي لعل في هذه الرؤية خيرًا أجهله.

- خيرًا فعلت يا ابنتي، وحلمك خير بإذن الله.

تفسير حلم زكية

تجهم الشيخ وبان على وجهه الهم والقلق...

تململ قليلا وأخذت عيناه تجولان في فلكهما قبل أن تخرج منه الكلمات:

- صلِّ على حضرة النبي.

- عليه الصلاة والسلام.

- اعلمي يا ابنتي أن في حلمك ما ينذر بسوء المنقلب. وأنه يحمل وعدا بأيام صعاب يفتري فيها الناس على بعضهم البعض، فتضطرب الأحوال وتكثر المظالم. وإن القوم الذين يجور بعضهم على بعض فإنه يتسلط عليهم سلطان جائر لا يرحم ولا يسلم من شره نفر. وتتسق هذه الصورة مع رؤية الأسد. فهو سلطان غاشم. مجاهر.. فالسلطان ينتوي الشر لرعيته. ولكن مع الشجاعة والاستبسال تقهر الأعادي وينصر الله المظلومين.

و إن نصر الله لقريب ...

فسيخرج من هذه الأمة من يتصدى لهذا السلطان الظالم وينتصر عليه ويقضي على الظالمين من أتباعه وأجناده. وما الأذان إلا دعوة العباد إلى الحق والصالح من الأمور.

وآية النصر هي البشارة. وهل تأتي البشارة إلا من صاحبة وجه مليح؟ فلا يكون حرية إلا من بعد استعباد، ولا فجر إلا من بعد ليل طويل. فالجارية هي حاملة الأمل، هي القشة التي تتعلق بها سائر الرعية، هي التي تحمل الخير في ابتسامتها وتعد الناس بالخير.

و كما يخرج الفجر من تحت جناح الليل، سيأتينا سلطان عادل من حيث لا ندري. لكنه ينصفنا ويكون عصره عادلا يوحِّد عدله بين سائر الأجناس ويبسط حكمه على مشارق الأرض ومغاربها، فيكون لنا فيه الراعي المصلح والمنقذ من الظلم والفساد.

خرجت زفرة طويلة من زكية واعتلت وجهها أسارير السعادة والأمل في غد أفضل. تلفتت من حولها، فإذا بالسوق تزدان بالورود وتشرق الشمس على مساكنها فتصير بإذن الله قصورا صغيرة...

تجمع الخلق من حولهم يسترقون السمع لما يتم تبادله من أحاديث فيما بينهما وفجأة علا صوت أحدهم:

- الله أكبر عليك يا شيخنا... اللهم صبرنا على الظالمين وآتنا سلطانا عادلا.

تجمهر الخلق مستفسرين عما حدث وما قاله الشيخ مهدي لزكية وإن كان هناك أي تطابق بين البشارة التي بلغ بها جابر وبين ما سمعته زكية من الشيخ مهدي. قامت السوق ولم تقعد وانتشرت بطولات جابر وزكية في الأحلام ومهارة الشيخ مهدي وتفاؤل الناس به وبوجهه السمح الذي لا يحمل لهم إلا النهايات السعيدة.

تكاثر حلم زكية

دخل حلم زكية كل دار وطبق وحانوت، انتقل محمولا إليهم عبر الباعة الجائلين والمُكارين[1] والسقائين وباعة القهوة والطباخين والشرايحية. طار الحلم وتفسيره وحلق بأجنحة حمامة بيضاء ولم يترك شبرًا من القاهرة لم يدخله أو شخصًا لم يخبره.

وفي صباح اليوم التالي، تكررت الظاهرة وكأنها قد أضحت تقليدًا...

فُتِحت الأبواب والشبابيك، أطل الناس برؤوسهم وكأنما يتأكدون أنهم في علم وليس في حلم، خرجوا إلى الطرقات والحارات في عجلة من أمرهم وكأن أسدًا يطاردهم. خرجوا بعضهم غير مكتمل الملابس، حفاة أو بخفاف ما بين ملبوسة ومخلوعة... كان المنظر فوضويا ولكنه يدعو إلى البهجة، الابتسامات مرسومة

---

(1) المُكارون: جمع مُكاري، وهو الشخص الذي يمتهن إيجار الدواب.

علـى الوجـوه، العيـون تلتمع من فـرط السعـادة والإثـارة، الأفواه منفرجة وكأنها تحاول أن تنطق بشـيء ما. التفت الناس إلى بعضهم البعـض، نظـروا في عيـون الآخرين وكانــت الابتسامة تتبـادل فيما بينهــم، ابتسامة تطمين وتأكيد، ابتسامـة تُبلِّغهم أنهم ليسوا وحدهم في هذا العالم وأن ما رأوه لم يكن حلما ولكن هدفا مشـتركا يسعى له الجميع.

وما كانت إلا برهة قصيرة حتى تحول المهرجان إلى جلبة صاخبة...

تقرير عن زكية

الاسم : زكية (لم يستدل لها على أهل ولا يعرف لها كنية).

اسم الشهرة: زكية البلانة[1].

السن: 26 ربيعا.

المهنة: بلانة في حمام الساباط.

السكن: ربع الكتبيين بخط باب الزهومة.

التقرير:

من واقع مراقبة بصاصي مولانا السلطان للمتهمة السابق ذكرها، تأكد لنا فيما لا يدع مجالا للشك أنها متواطئة بتهمة الحلم بالتغيير. وتأتي تفاصيل حلمها مبشرة فقراء السلطنة بالتخلص من سلطان البلاد والتخلص من ظلمه - وفقا لحلمها - وأنه سيأتي من يخلص

---

(1) البلانة: من تخدم في الحمام.

الرعية من الحاكم الجائر ويقضي عليه ليحل مكانه وينشر الرخاء والعدل في السلطنة.

ولقد لجأت إلى الشيخ مهدي ليفسر رؤيتها. وبشرها الشيخ بتبدل الحال. ولم يلبث الأمر حتى عرفه مرتادو الحمام وسكان الخط والتجار أجمعون. تناقل الخبر بسرعة فائقة بينهم. توالد الحلم وتكاثر بين الناس لدرجة أنه صار شائعا على مدار الأسبوعين الماضيين.

التوصية:

نرى في زكية مصدر خطورة قصوى على حكم مولانا واستقرار السلطنة نظرا لما تمثله أحلامها من أمل ورمز يدعو للتغيير، كما نرى في حلمها إساءة إلى مولانا السلطان وازدراءه والتلميح بظلمه وبطشه في الرعية.

لذا نوصي بتطبيق أقصى عقوبة.

انتهى التقرير.

قرار السلطان

نظرا لما يحمله حلم المتهمة من مخاطر شديدة على تماسك السلطنة ودعوتها المبطنة لقلب الحكم وتشجيع خروج الدخلاء على أولي الأمر فإننا ارتأينا ضرورة استخراج كل المعلومات عن هذا الراعي الذي ينتوي الانقلاب على نظام السلطنة. كما نأمر باتخاذ الإجراءات التقليدية فيما يخص المتهمين برؤية الأحلام المؤلبة على النظام.

ذلك ويتم التنفيذ فور ورود هذه الأوامر.

انتهى

بلا توقيع

تعذيب زكية

انتهت زكية من عملها بعد يوم شاق وطويل. كان الحمام قد فرغ بعد خروج آخر زبونة. توجهت زكية إلى المسلخ حاملة بغلطاقها وتوجهت إلى المقطع لتبديل ملابسها. ارتدتها بشيء من التكاسل من فرط التعب، خرجت مخترقة البهو الصغير للمقطع متوجهة ناحية الباب الخشبي الصغير الذي سيعيدها - هذه المرة - إلى عالم الحقيقة والآلام، عالم المعاناة اليومية الذي لا تهرب منه زكية إلا لساعات معدودات فور عبورها هذا الباب الخشبي إلى داخل الحمام. الآن تبدأ الرحلة العكسية، رحلة استفاقة أشبه بالصدمة.

خرجت زكية متوجهة إلى ربع الكتبيين حيث طاقتها لتريح جسدها من عناء يوم عمل قاس ولتغمض عينيها على تلك الأجواء الحالمة التي تعيشها في الحمام من خلال القصص والحكايات التي تتناقلها سيدات الحمام.

انعطفت يسارا إلى درب الطاووس لتبدأ مشوار العودة، ثم سارت بمحاذاة فندق الزمام. ما أن تجاوزت الفندق حتى أحست بحركة مريبة خلفها وما أن التفتت لترى من أين جاء هذا الصوت حتى بوغتت بشخص يخلع عنها غطاء رأسها ويلقي بخرقة حول رأسها تحجب عنها الرؤية، ويكمم فمها وآخر يوثق يديها بحبل ويجذبها ناحيته بذراع قوية، فتية تحيط بخصرها. كان كل شيء قد حدث بسرعة شديدة حتى أن زكية لم تتح لها فرصة للصراخ أو حتى محاولة التخلص من قبضة خاطفيها. وجدت نفسها محمولة على كتف أحدهم كجوال بطاطس وألقيت في عربة يجرها حصان. تحركت العربة بسرعة كبيرة قاطعة الأشواط وكأنهم في سباق مع الريح. استمرت الرحلة زمنًا غير معلوم إلى أن هدأت الحركة ثم توقفت تمامًا. وبنفس السرعة، تم حملها على كتف أحدهم ودخلوا إلى مكان شديد الرطوبة. كان المكان أشبه بقبو حيث الرطوبة وبرودة الهواء وصدى الصوت المحيط بهم. سمعت صوت باب حديدي يفتح يلازمه صدى صوته ثم لم تلبث أن أحست بنفسها تلقى من علو وترتطم بأرض حجرية جامدة. أزيلت عن وجهها الخرقة وتم حل وثاقها وخرجوا من الغرفة تاركين زكية تغوص في ظلمات المكان.

كانت تتأوه من شدة الألم الذي اعتراها من جراء ارتطام جسدها بالأرض. كانت ضلوعها تؤلمها بشدة وكان مكان الوثاق

الذي شد حول معصميها قد ترك جرحًا مؤلمًا. مع مضي الوقت اعتادت هذه الآلام وبدأت تلتفت للمكان الذي ألقيت فيه. كانت غرفة معزولة، يسودها الصمت الشديد لدرجة تثير التوجس والخوف، كان الظلام يغمر المكان اللهم إلا من خيط رفيع من الضوء يأتي من مكان بعيد. الرطوبة خانقة ورائحة الخوف تطغي على كل شيء آخر.

كان في ركن الغرفة كتلة صماء لا تتحرك تحيط بها بقعة من سائل قاتم اللون، متماسكة وثابتة في مكانها. صدر صوت أنين مكتوم، متقطع... خيل لها أنها تتوهم في بادئ الأمر. ركزت قليلا، سمعت الصوت مرة أخرى، كان مكتوما وكأنه صادر من بئر عميقة ولكن الصوت كان حقيقيا، كان موجودا معها في نفس الحيز. ألقت بنظرها على الكتلة الصماء فإذا بها تتحرك، أدركت على الفور أنها ليست وحدها. اقتربت بحرص شديد من هذا الجسم المكوم على نفسه وإذا بخيط من سائل قاتم يخرج من رأسه ويسيل على جسمه وصولا إلى الأرض مكونا البقعة الداكنة.

- من أنت؟

استمرت التأوهات تصدر عن الجسد...

- هل أنت بخير؟

تقلب الجسد حتى أصبح وجهه مواجها لها وكانت الصدمة الكبرى...

- جابر؟ ماذا جاء بك هنا؟ هل أنت بخير؟

- من أنتِ؟

- أنا زكية...زكية البلانة...

- ماذا جاء بكِ أنت هنا؟

- واللهِ لا علم لي. كنت خارجة من عملي في الحمام وإذا بأناس يكممونني ويقيدون يدي ويقتادونني إلى هنا دون النطق ببنت شفة عن سبب تواجدي هنا. وأنت ما الذي أصابك؟

- قُبِضَ عليَّ واتهمت بالحلم بالتغيير فتم ضربي وتعذيبي تعذيبا شديدا أفقت منه لأجد جرحا في مؤخرة رأسي ولا أتذكر شيئا مما حدث لي على وجه التحديد...

- الحلم بالتغيير؟ هل تقصد الحلم الذي جاءك ورويته للشيخ مهدي؟

- لا بد أنه ذلك...

- و هل الحلم أصبح جريمة؟

- يبدو كذلك...

- ألهذا السبب جاءوا بي هنا؟ لمعاقبتي على حلمي؟

- و هل حلمتِ أنت الأخرى؟

- نعم، حلمت بانقضاء الغمة وزوال الهم ومجيء العدل وحسن الختام...

- حلم بالتغيير... أهلا بك إذا لمصيرك المحتوم.

لم ينتهِ جابر من جملته حتى فُتِحَ باب الحجز ودخل مجموعة من الجنود. توجهوا صوب زكية، رفعوها من تحت إبطيها وجرجروها خارج الغرفة ولُطِمَ الباب الحديدي من خلفهم.

لم تمضِ لحظات حتى كان صوت صراخ مدو، يبث الذعر في القلوب، صراخ ما بعده صوت.

كابوس زكية

- حينما يفقد الناس الأمل يا مولانا السلطان، دائما ما يبحثون عن العدل؛ لذا يجب التأكيد على أن الناس طبقات وأن العدالة لا تكون إلا لناس على حساب آخرين أقل حظا. وأن المولى تعالى فضل ناسا على ناس. ومن أجل ترسيخ دونيتهم، نخرج عليهم بقصص خرافية عن كنوز المحظيين لنحطمهم تماما.



أفاقت زكية لتجد نفسها مكومة في وسط الغرفة التي كانت بها في أول الأمر... كان الإحساس بالألم يطغى على كل شيء آخر بالنسبة لها. تأوهات تخرج منها دون تفكير ودون سيطرة، أنين مستمر وكأن سائر أعضاء جسدها يشتكي ليس فقط من هول التعذيب الجسدي الذي تعرضت له ولكن أيضا من كثرة الخيالات التي تراءت لها:

رأت زكية فيما تراءى لها أن «إبراهيم سليمان ارتكب جرائم **الاستيلاء على المال العام**».

و«ابنه القاصر شريف طلب قطعة أرض 1000 متر وعند قياسها زادت إلى 2400 وعند التسليم تمددت إلى 4500» وأنه «أعاد تخصيص 500 فدان لرجل أعمال رغم سحبها منه» وأنه «أهدر 700 مليون جنيه على الدولة في عام واحد» وأخيرا أنه «خصص حديقة عامة مساحتها 10 آلاف متر لبناء قصر لرجل أعمال كبير».

وزادت التأكيدات على قلة حظ العوام وميل بختهم من خلال بيانات الرقابة الإدارية بأن «**إبراهيم سليمان أضر بالمال العام» فهو «ألغى مزادا لمئات الأفدنة بسعر 650 جنيها للمتر ثم باعه بـ 200 جنيه فقط». وأنه «خصص 600 فدان لأسرة واحدة في يوم واحد بأسماء 3 شركات».**

- لكم أن تتخيلوا وقع خبر كهذا يا مولانا السلطان على بلَّانة فقيرة تشقى وتتعب كل يوم من أجل الإبقاء على حياتها في حين أن مسئولا كبيرا في السلطنة يعيث في الأرض فسادا ويكتنز المال والقوة. ماذا تعتقدون أن هذا سيفعل بها؟

- لقد أثرت إعجابي يا نائبي الداهية. كيف لم ألم بهذه الموهبة النفيسة من قبل؟

- هذا شرف لي يا مولانا ولكن تقديركم لي يكون بإتمام المراد. ومن أجل الوصول إلى الهدف المنشود علينا بتسريب المزيد من المعلومات من جهات تحقيق تابعة للسلطنة:

إبراهيم سليمان تلقى 20 مليون جنيه رشاوى من 3 رجال أعمال

4 يناير 2010

مذكرة رسمية: سليمان باع أرض «مدينتي» إلى هشام طلعت بقانون ملغي

20 مايو 2010

- كل هذا قام به هذا المملوك الصعلوك؟

- لو تعلم يا مولانا كيف يعيث أمراء المماليك في الأرض فسادا؟ كل هذه الكوابيس إنما مصدرها مملوك واحد وهو ذو حظوة وسلطان. لكم أن تتخيلوا يا مولانا وقع هذا الكابوس على زكية إذا ما تأكد لها أن الظلم الذي تتعرض له يأتيها من كل الجهات وليس مقصورا فقط على المحظيين.

كشفت مستندات حصلت عليها «الشروق» عن تعيين خريج في وظيفة مدرس مساعد بقسم الاقتصاد بكلية التجارة جامعة طنطا رغم رسوبه في الفرقة الثانية وحصوله على تقدير مقبول في الفرقتين الأولى والثانية بكلية التجارة جامعة المنوفية بجانب حصوله على نسبة صفر ٪ في تقدير امتياز و54٪ بتقدير مقبول.

18 أغسطس 2010

تحقيقات نيابة الأموال العامة: غالي انقطع عن العمل 3 أشهر لإجراء عملية تستغرق يوما بمصروف 1.4 مليون جنيه

20 سبتمبر 2010

الحي سمح بتوصيل المرافق لشخص وهمي وحرر محضر إزالة باسم آخر.

26 أكتوبر 2010

- يكفي نشر مثل هذه الكوابيس ليفقد الناس الأمل في كل حياة...

* * *

- ونستمر في تحقيرهم وإرساء مبدأ أن ليس فقط الغنى من نصيب من هم أعظم منهم شأنا ولكن مناحي الحياة المختلفة ليست في جانبهم...

- وكيف نقوم بذلك؟

- هل تستطيعون يا مولانا تخيل أرض مثل مصر كانت ملتقى الأديان والحضارات يتعايش الجميع فيها بأمان وعدل تتعرض لهجمات شرسة ضد طائفة دينية على وجه التحديد؟

- هذا مستحيل.. فهذا الشعب له من التسامح والقوة ما لم أره في شعوب الأرض أجمعين.

- فما رأيكم إذًا لو زعزعنا هذه الصورة؟ ماذا تتخيلون أن يحدث للعوام إذا ما أحسوا أن فئة منهم أصبحت مستهدفة وغير آمنة؟ ما رأيكم لو أحدثنا «**30 حادثا طائفيا في 3 أشهر**»؟ ثم أتبعناها بـ «**30 مصابا في أول أحداث طائفية في مرسى مطروح**»؟ وحينما يتأقلم الناس على تلك الأحداث ويتوقعون أنها تستهدف طائفة محددة، نفاجئهم بأنها لا تستثني شخصًا.

الأمن يحتجز طفل عمره 4 سنوات للضغط على والده لتسليم نفسه.

6 أبريل 2010

المصرية لحقوق الإنسان:

وفاة مواطن بعد تعذيبه بقسم شرطة دير مواس

15 أبريل 2010

ضابط و3 أمناء يعذبون صاحب محل اتصالات ويقتادونه عاريا إلى قسم العمرانية

25 أبريل 2010

النيابة تحقق في تهمة تعذيب حتى الموت بقسم أول مدينة نصر.. والأمن يؤكد: الوفاة طبيعية

16 يونيو 2010

المصرية لحقوق الإنسان:

المخبر قال لخالد: «مش حسيبك غير لما تموت»

16 يونيو 2010

فينعدم الإحساس بالأمن ويخشى الناس الدرك ويهابونهم فيعيشون في انكسار وخوف ويقبلون بإهانتهم وتحقيرهم من أجل أن يبقوا على قيد الحياة حتى لو كانوا يعيشون عيشة الكلاب !!!

* * *

- ولا نتوقف عند حدود الحياة الأساسية، بل نتجاوزها إلى ما هو أبعد من ذلك. سنجعل كل الخدمات التي تمنح المرء بصيصًا من الأمل في أن يصير إنسانا له قيمة ويمكنه أن يكون له عمل

شريف وكريم يساعده على اعتلاء المناصب والارتقاء بحياته شيئا مستحيل المنال. سنجعل التعليم منفرا والرعاية الصحية وعدمها سواء والتنقل إلى مكان آخر قد تكون فيه فرص العمل أفضل أو ظروف الحياة أيسر يكون من رابع المستحيلات.

اعتبر د. حمدي السيد نقيب الأطباء ورئيس لجنة الصحة بمجلس الشعب أن الحكومة سعيدة جدا بإحجام القطاع الأكبر من أولياء الأمور عن تطعيم أبنائهم في المدارس الابتدائية باللقاح المضاد لفيروس (إتش 1 إن1) لأنه يوفر لها لقاحات ستبيعها بعد ذلك بـ 80 جنيها مقابل التطعيم.

7 يناير 2010

- سنجعل من **«ربع سكان الدلتا مصابين بفيروسات كبدية»** وستتسبب في **«معارك على الأسطوانات بقرية في الغربية تترك 8 جرحى بينهم العمدة»**، وستعمد عمل **«شلل مروري في طامية بسبب زيارة جمال مبارك للفيوم»**. سنحيل حياتهم إلى جحيم يعانون منه صباحا ومساءً.

- ما أدهاك يا نائبي العزيز... يخرج كل المُكارين بحميرهم في الوقت ذاته لسد الطرقات وشل المدينة بالكامل؟ ولكني متحير من شيء، فأنا لا أعرف لماذا أحس أن بينك وبين العوام ثأرًا.

- العوام يا مولانا هم سبب شقائنا، انظر يا مولانا المجهود الذي تبذلونه للعمل على راحتهم وخدمتهم وعلى الرغم من كل ذلك ينكرون الجميل وينغصون عليكم حياتكم ولذا يجب التعامل معهم بقسوة. سنجعلهم يذوقون الويلات:

المصريون يهدرون 5 ملايين ساعة فوق كوبري أكتوبر سنويا

28 مارس 2010

- وننفر الصغار في التعليم فيكرهونه ويفعلون كل ما يستطيعون للهروب من الكتاب والمدارس وحينئذ تصبح كافة المناصب حكرا على المتعلمين فقط، والعوام بالطبع لن يصمدوا.

التعليم كالماء و الهواء بـ «فلوس»

9 يناير 2010

88٪ من المصريين لا يقرأون إلا الكتب الدراسية

3 مارس 2010

- سنجعل أولياء الأمور ييأسون من جدوى التعليم في إيجاد فرص عمل لأبنائهم إلى الحد الذي سيقولون لهم على أبواب اللجان: «**ذاكروا للنجاح فقط لأن الشغل بالواسطة**». كما سنجعل الخبراء يبثون تعليقات محبطة عن جدوى التعليم مثل قولهم: «**التعليم العام متروك حتى تسمح الظروف السياسية بالتخلص منه**». وسنضرب المثل بالظلم من حيث جعل «**الأميون يعملون وحاملو**

الدكتوراه عاطلون». و لمن يعترض من الطلبة، فهؤلاء لهم مصير معروف:

مدرس يكسر أنف تلميذ إعدادي بالغربية

20 أكتوبر 2010

- ولكل من يحاول الهروب إلى بلاد الله الواسعة، فسنقطع عنه السبل.

- وكيف ستقوم بذلك أيها النائب؟

- تخيلوا يا مولانا المشاهد التالية وستفهمون :

دموع سائقي الأجرة أمام محطات الوقود

9 مارس 2010

موقعة «البحر الأعظم» للحصول على جركن سولار واحد

10 مارس 2010

«..تسبب العطل في حصول ركاب الوجه القبلي والبحري على تذاكر دون أرقام محددة للكراسي.. أصبح الكرسي من حق الأقوى، فالقطار يشهد مشاجرات يومية تنتهي بانتصار الأقوى بدنيا بالكرسي، بعد أن يبطش بكل منافسيه».

13 أبريل 2010

* * *

أحمد

أحمد السقاء

كان أحمد أكثر الناس دراية بدروب القاهرة وأزقتها من واقع عمله كسقاء يوصل الماء إلى الربوع والخانات والقيساريات ومنازل كبار التجار. وكان بطبيعة عمله يجتاز الأبواب المغلقة ويطّلع على حياة الناس وأوجه الترف والنعيم الذي يعيش فيه كبار التجار ونسائهم وما يراه من أوجه الغلب والفقر في الربوع المخصصة لصغار التجار الذين بالكاد يجدون ما يقتاتون منه والذين يكاد وضعهم يقترب من حال الفقراء إلا أن عزتهم وكرامتهم تأبى عليهم أن يوصفوا بمثل هذا اللفظ وبالتالي حاولوا الإبقاء على شيم ومظاهر النبلاء من التجار.

كان شاهدا على تبدل الحال من يوم لآخر، كان يرى التجارة يسودها الكساد والأسواق تقل بضائعها ويندر مرتادوها إلى أن تنهار الأسواق كلية. كم من أسواق اندثرت وأصبحت أثرا من بعد عين. كم من ذكريات بقيت لعم أحمد وتلاشت من ذاكرة آخرين،

سوق المرحلين الزاخرة بمتاع السفر واحتياجات المرتحلين خربت ولم يبق لها وجود، سوق حارة برجوان واحدة من أهم أسواق القاهرة خربت وحل مكانها فيما بعد تجار أقمشة، سوق الخلعيين التي كانت ملاذ الغالبية العظمى من الرعية الذين لا يطيقون شراء ملابس جديدة، خرب أكثرها، سوق الشماعين بجلالها لم يتبق منها شيء يذكر وغيرهم الكثير من الحمامات والقيساريات والخانات والربوع. مرت الذكريات على السقاء مرور نسمة بحرية عذبة تحمل في طياتها حكايات من ضفة بعيدة تناجي المتلقي لها أن يتعاطف معها وألا ينساها، أن يعيد الذكر على كل من يلتقي لتبقى نضارة الحكايات وحضورها في الألباب والقلوب، لتبقى الذكرى إلى ما بعد الزمن وتنتقل من جيل إلى آخر فتبعث الأطلال من جديد وإن لم تجسد أمام الناظرين ولكن تبعث روحها وتحلق أطيافها في آفاق المدينة المعزية فتبعث روحها في أذهان الناس. كيف ينسى الناس تاريخهم وحكايات الأسواق التي تنبض بالحياة؟ كيف ينسون ماضيهم ومجدهم؟ كيف يبقون على هويتهم إن كانوا لا يأبهون بوجودهم المتمثل في نشاطهم؟

تغيرت الأزمنة وحملت رياح الصحراء معها ما حملت ودمرت ما دمرت وتركت لنا الأطلال لنبكيها عندما يفوت الزمن ويضيع منا الطريق. تغيرت الأزمنة كما تغيرت ملامح وجهه وخطوط جسده

تفاعلًا مع الزمن وصعابه فضرب الشيب شعره وتجعد وجهه فأصبح أشبه بحواري القاهرة والتواءاتها، أصبح كأرض غمرها السيل وانحسر فجففته الشمس وتركت فيه قنوات غائرة، جامدة، سُلِبت منها الحياة وتركت أثر الزمن عليها.كانت عيناه عسليتان، تفيضان بالطيبة والرقة ومع مرور الأيام زينهما الإرهاق والفقر، صارت نظرته مستضعفة وإن كانت لا زالت فيها عزة، أصبح ظهره محنيًّا من حمل القرب ومن ثقل الهموم التي داهمته يوما من بعد يوم. كان جلده قد فقد ملمسه الناعم وأمسى خشنا، مليئا بالتشققات، أظفاره كأنها عظام، دائمة الاتساخ، صارت خطوطها بارزة ولونها منطفئ...

كانت تلك الذكريات نسمة بحر لأحمد السقاء ولكنها كانت محملة بحسرة وشجن. حسرة على ناس أضاعوا ماضيهم ومستقبلهم، ناس لا يأبهون إلا باستمرارهم على هذه الأرض وبقائهم على قيد الحياة، ناس لا يأبهون بسر وجودهم الحقيقي وسر بقائهم وبقاء أبنائهم من بعدهم.

كان أحمد كغيره من السقائين يلجأون إلى خلط ماء النيل بمياه الآبار مضطرين حتى يستطيعوا أن يوفروا الكميات المطلوبة لكل بيت وكل صاحب تجارة وحرفة. كان الماء قد بدأ يشح ويندر كما انقرضت الكثير من السلع. ولكن كانوا يبررون لأنفسهم هذا الغش

بأنه لولاه لماتت الناس أو لجأوا إلى الهجرة أو زادت الأوبئة وماتت المزروعات فسادت مجاعة وبالتالي فإن من واجبهم أن يستمروا في توفير الماء بالكميات التي تبقي على أرواح الناس ومزروعاتهم وتجاراتهم. كانوا يسوقون الأعذار ولكنها لم تقنعهم. كان أحمد يخشى أن يقع ضحية انتقاده لزمرة الناس الذين لا يفكرون إلا في الإبقاء على تجاراتهم للحفاظ على حياتهم واستمرارهم في الوجود. كان يعلم أن هذا العذر لا يفصله عمن ينتقد إلا بحد شعرة ولكنه أوجد التبرير المناسب له.

مضى أحمد في الطرقات دون أدنى التفاتة منه أو حاجة لرفع عينيه عن الأرض، كان يعرف مسالك المدينة عن ظهر قلب. كان يعرف أماكن الربوع والبيوت وأماكن جلوس أرباب الكراسي والقيساريات والدكاكين ويعرف اسم كل تاجر وبائع جائل في المدينة. كان يعرف عادات كل تاجر وأماكن تواجدهم وفي أي وقت، كان يسير ويلقي السلام والنكات على التجار بشكل تلقائي دون النظر إليهم. يتوقف بلا مقدمات ليملأ زيرا أو يسقي مارا وكأنه يقرأ أفكارهم ومطلع على احتياجاتهم.

اجتاز أحمد السقاء الأسواق في خط بين القصرين طالبا فتح الطريق بالنداء الذي يعرفه الجميع. صوته الرخيم، الجهوري... ما أن يسمعه المارة حتى ترسم في أذهانهم صورة السقاء حاملا

قربته الثقيلة، ملابسه المبتلة، العرق الذي يتصببه، وظهره المحني. يفسحون الطريق تلقائيا ودون أن ينظروا خلفهم عطفا منهم على الرجل.

يجتاز الدروب والخطط، الحواري والفسحات إلى أن يصل إلى البيوت ليمدها بالماء كل يوم. يطرق على الأبواب الخشبية المحصنة، يجتاز الممر البسيط الذي يؤدي إلى فناء المنزل حيث الزير الذي يصب فيه المياه ليمد البيت وقاطنيه بما يحتاجونه منها لأكلهم وشربهم ونظافتهم ...

يدخل المساكن خافضا رأسه، متواريا عن الأنظار خائفا من التلصص على نساء البيت اللائي يكن وحدهن في المنازل مع بعض من الخدم في حين يكون أزواجهن في تجارتهم في مثل هذا الوقت من اليوم.

اجتاز أحمد السقاء سوق الصيارف وسوق النقليين الذي أوصله إلى سوق القفيصات مرورا بمقعد وقف قلاوون ومدرسة وقبة قلاوون والمدرسة الناصرية والمدرسة البرقوقية انتهاءً إلى المدرسة الكاملية. انعطف يمينا وأدار ظهره للمدرسة وعرج إلى خط قصر بشتاك. اخترق البوابة الضخمة بضلفتيها الخشبيتين السميكتين المزدانتين بأزرار حديدية بارزة تحول دون اقتحام البوابة. كانت الشمس تلقي بأشعتها المائلة برقة على الباب فتنطقه رقة تتعارض

مع كبر حجمه وسماكة ضلفتيه وقسوة الأزرار. كانت أشعة الشمس في مثل هذا الوقت من النهار بنعومتها تهب كل ما تلمسه روحا، تستنطقه فتحيله من شكله الجامد إلى حياة كاملة... تستطيل ظلال الأزرار الحديدية على البوابة الخشبية فترسم عليها سيقان طائر طويلة باسقة فيها وقار ورقة، فيها صرامة ولين ...

اجتاز القوس الحجري الذي يزين البوابة ومر من خلال الممر المسقوف على بلاطات من حجر خشن، قاس. دخل في عتمة موجزة إلى أن وصل إلى آخر الممر فرأى النور مرة أخرى وكأنه يعلن عن دخول الدنيا مرة أخرى. خرج إلى سلسلة من الالتواءات والمنعطفات يعرف عددها... ثمان بالتمام والكمال لا يتجاوز طول الطريق بضعة عشرات من الأذرع حتى يصل إلى الالتواء التالي. كان يعلم كل بيت، كل كتاب وكل مدرسة على جانبي كل منعطف. كان الطريق أشبه بمتاهة تأسر من لم يعتدها، تطبق على صدره وتقلقه، كأن كل منعطف اختبار جديد يُحَمِّل المار أسئلة ويثير في عقله الفضول عما تكون الأجوبة، تطرح التوقعات وتثير الإحباط حينما يجد ما لم يتوقعه ولكنها في ذات الوقت تكون مفاجأة، عالم جديد يكتشفه. أما بالنسبة لأحمد فلم يعد هذا الطريق يحمل أية مفاجآت له. كانت طريق عمله اليومي، مشواره الذي يقطعه ليصل إلى سكنى البيوت يمده بأصل الحياة.. المداد الذي ينطق به الكتاب ولا قيمة له إلا به. حمله في قربته الجلدية المرطبة. ما أن يجتاز الالتواء الأخير

حتى يجد نفسه أمام الرحبة الفسيحة. كانت هذه الرحبة على عكس كل رحاب القاهرة تستوقفه كل يوم. يقف أمامها مشدوها، يلتقط أنفاسه ويريح ظهره من الحمل الثقيل الذي أنهك كاهله، يتطلع إلى النخل السامق الذي تداعب فروعه السماء فتكون بذلك متفردة في ميزة نوعية لا تنافسها فيها إلا الطيور... رحبة واسعة، هادئة، تعزلك عن ضوضاء الخط ونداءات الباعة ومنادي السلطان والمحتسب ومساومات النساء، تمنحك لحظة من التأمل، من التروي وإعادة النظر في كل شيء... رحبة مسقوفة بسماء زرقاء صافية، تزينها في بعض الأوقات سحب ناصعة البياض، يلامسها النخل الشامخ، نخل يتمايل مع دغدغة نسمات الصباح العذبة. ينعطف يمينا ويجتاز الرحبة بحديقتها الصغيرة الغناء التي تهجع إليها الطيور من كافة الأشكال والألوان، تصدح فتمنح العابر روحا جديدة تنقله إلى عالم غير العالم، إلى جنة من جنان الله الموعودة. توجه إلى أقصى ركن في الرحبة حتى وصل مقصده.

بيت الست حفيظة

يصل أحمد السقاء إلى باب البيت الخشبي المطل على الرحبة. يدق على الباب بيده وينادي.

- يا أهل البيت ... يا أهل الدار ... صلوا على حضرة النبي.

ينتظر لحظات قبل أن يفتح خادم مليح الوجه الباب ويُدخله عبر الممر القصير إلى باحة البيت. باحة آية في الجمال، تتوسط البيت، يحفها الشجر الوافر الظل، تزينه فسقية صغيرة ينساب منها الماء بعذوبة فيحدث خريرا هادئا يداعب الأذن فتصيب الروح بالسكينة والهدوء وإحساس بالأمان والطمأنينة.

في آخر الباحة مجموعة من أزيار متراصة في ركن ظليل. وقف أحمد في المكان الذي تركه فيه الخادم، خفض عينيه حتى لا يتم اتهامه بالتلصص على نساء البيت. وقف منتظرا قدوم صاحبة الدار، صاحبة الأمر والنهي في شئون المنزل. لم تمر لحيظات حتى سمع

وقع أقدامها، لا يخطئه أبدا. خطوات واثقة، حازمة، قوية، خطوات توحي بالسلطة والقدرة.

ها هي برونقها المعهود إذًا، الست حفيظة زوجة أكبر تجار القاهرة في وقته. كانت بيضاء البشرة، ناعمة الملمس، ذات وجه مستدير كأنه البدر في تمامه، مفرطة البدانة، ذات صدر ممتلئ وأرداف عريضة. كانت يداها مخضبتين بالحناء، منقوشا عليها طائر خرافي يجر ذيله أبيات شعر في وصف الحبيب، وكانت أظفارها مطلية بطلاء أحمر قان، لا تخطئه عين.

كانت في كامل زينتها، مرتدية سروالا أخضر يعلوه بهطلة[1] بيضاء اللون ذيلها طويل يصل إلى حد الأرض ويصل اتساع أكمامها إلى ثلاثة أذرع وفوقها ثوب أحمر قصير، واسع الأكمام يبدي أكثر مما يستر بشكل يكاد يكون فاضحا فظهرت بضاضة صدرها وبياض جلدها واعتلت رأسها عصابة مقنزعة[2] مطرزة بزخارف نباتية آية في الجمال ومزينة بالذهب واللؤلؤ جعلت من العصابة تحفة فنية متحركة، وأخيرا قبقابا خشبيا تزينه نقوش بديعة يكشف عن مفاتن قدميها ببياضهما الناصع الأخاذ.

(1) البهطلة : قميص على سبيل الملابس الداخلية .

(2) مقنزعة: صغيرة.

استرق السقاء نظرة سريعة بعينيه المحنكتين وقدر ما ترتديه الست بما لا يقل عن مئة وخمسين ألف دينار، ثم نظر إلى قدميه الحافيتين وسرواله القذر في حسرة وألم شديدين. يا لظلم هذه الدنيا. يعطي من يشاء من غير حساب حقا.. سبحانك يا الله. كُتِبَ علينا الشقاء والعذاب في الدنيا يا رب وكُتِبَ على آخرين النعيم. اللهم ارزقهم واجعلهم يمنحونا نظرة عطف تستر عرينا وترفق بحالنا في هذه الدنيا التي تطحنّا بين كفي رحاها فتحيلنا إلى تراب لا قيمة له، يختلط بالأرض فلا يستطيع المرء أن يميز الطين من الإنسان... هذه هي حياتنا، نسف التراب في حياتنا ويستنشقنا الناس فينفرون منا بعد مماتنا...

- صباح الخير يا ست الكل.

- كيفك يا أحمد؟

- نحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

ازداد شعرك شيبا وتصبح أنحف كل يوم، ماذا يصيبك يا رجل؟

- الدنيا يا سيدتي.. لا ترحم الضعفاء أمثالي.

- هذا حالنا جميعا يا أحمد.. هيا إلى عملك ومد أزيار البيت من مائك العذب.

- حالّا يا سيدتي.

تقدم أحمد بخطى واثقة وإن كانت منكسرة إلى الركن المخصص للأزيار فاستغل اللحظة ليتمتع بقليل من ظل الأشجار الوارفة ويتمتع بتخفيف حمل القربة من على كتفه في كل لحظة ينزلق فيها الماء إلى الزير تلو الآخر. دقائق معدودات وكانت القربة خاوية تماما وكانت مهمته اليومية في هذا البيت قد انتهت.

كانت الست حفيظة قد توارت عن الأنظار وعادت إلى الحرملك في أغلب الظن ترقبه من مشربيتها المطلة على باحة الدار وكانت فاطمة الجارية قد اقتربت منه لتقوم بتوصيله إلى باب البيت في مشوار خروجه من هذه الجنة إلى عفر الطريق وضوضائها، إلى المزيد من الظلم ولكن ظلم الناس وليس ظلم القدر في هذه الحالة. التفت إلى الجارية فرأت في عينيه مسحة حزن كادت أن تنديهما ولكنه سعى جاهدا أن يداري درر عينيه. ربتت الجارية كتفه بعطف غير مألوف كاد يصهر قلبه وأسرت في جسده رعشة خفيفة. نظرت إليه بنظرة لا تقل حُنوا وقالت له:

- لا تيأس يا عم أحمد.

- كيف لا أيأس والحياة تزداد قسوة كل يوم؟ ألا ترين كيف زادت الأسعار وزاد طمع كبار التجار والمماليك وجلبانهم وأمرائهم وسلطانهم؟ لا يهم أي منهم إلا خزانته وتكديسها بأموال وبضائع...

- أعرف...

- حتى زوج سيدتك تاجر غاشم.. محتكر تجارة النُقَل والفواكه والخضر في بر مصر كلها. يستغل حاجة الناس فيرفع أسعاره وإذا اعترض الناس حجب بضاعته عن الأسواق متلككا بالعجز في المياه التي تروي حدائقه ومزارعه، فيضطر الناس إلى بذل الغالي والنفيس ليبقوا وذووهم على قيد الحياة.. أفلا تدرين كم بلغت أسعار البضائع خارج أسوار جنتكم هذه؟ ألا ترين اصطفاف الناس أمام الأسواق يأكلون بأعينهم ويدفعون من لحمهم الحي؟

- بلى أرى وأحس بهم كل يوم ويتقطر قلبي كمدا ووجعا على حال الناس وما آلوا إليه. فكم من جيفة تطالعك في الطرقات وكم من مجذوب تكشف رقعه أكثر مما تحجب وتحس بالجوع ينطق في عينيهم... ولا أخفي عنك أنني أعذب كل يوم حين أرى العز المحيط بي والفقر خارج هذه الأسوار. ولا يقطع قلبي الفقر بقدر ما تعذبني نظرة الذل والهوان التي تجعل المرء يتنازل حتى عن كرامته وعفته للحصول على كسرة خبز وأصبحت الرؤى المزعجة تطاردني في غفوتي وفي يقظتي.

- رؤى؟

- نعم... أحلام مزعجة.

- ألم يأتكِ الخبر؟ انتشرت الرؤى مؤخرا عند العوام ووصلت إلى حد تكاد تحلق بأجنحة وتستقر في كل بيت وربع وأصبح الشيخ مهدي هو مفسر أحلام العوام بل وبعض التجار أيضا. أنا نفسي

جاءتني رؤية عجيبة أقلقت منامي وطيرت النوم من عيني على مدار أيام من الحيرة والتدبر في المعاني حتى عجزت تماما. هل ترددتِ على الشيخ مهدي ليفسر لكِ ما رأيتيه؟ لقد ذهبت إليه بعد أن ذاع صيته خاصة بتفسيره لرؤى جابر النقلي. أعتقد أنه يتوجب عليكِ الذهاب إليه.

- لم أعِ أنها أمست ظاهرة.
- لقد تجاوزت حد الظاهرة ...
- ماذا تعني؟
- لقد أشيع في البلاد أن السلطان أصابه هاجس كبير من انتشار هذه الرؤى وانتشرت الأقاويل عن معاقبة الحالمين.
- يا ستار يا رب. وكيف يتأتى لهم ذلك؟ وهل وصل البطش إلى حد منع الناس من تفريغ بواطن عقولهم أثناء نومهم؟
- هاها... لم أعد أتعجب من شيء في هذا الزمن. فلقد وصل الظلم والافتراء إلى آفاق لم نعهدها من قبل فلا تستعجبي يا ابنتي من هذه الأوضاع ويكفيك أن تري ما تلبسه سيدة هذا البيت وقيمته وما تلقيه لك من أسدال لتستري عورتك ولا تفترسك أعين الذئاب البشرية في هذه المدينة المسعورة.
- لك الحق يا سقاء. ولكن دلني على الشيخ مهدي وأين أجده؟ واضح أن الأمر فيه من الخطورة ما يستدعي ألا أتخاذل وأن يشرح لي ما يصيبنا.

- قل لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

- و نعم بالله.

- الشيخ مهدي تجدينه كل يوم عند مجلسه في سوق قبو الخرشتف. لا يمكن أن تخطئيه، فستجدين الناس ملتفين من حوله تسمع الرؤى التي يسردها المترددون عليه باهتمام بالغ وينصتون بدهشة بالغة إلى ما يسرده عليهم من تفسيرات للأحلام. مشهد ملفت للأنظار. ستعرفينه من هيبته ووقاره رغم فقره الواضح.

- سأتذكر إذًا ما ذكرته عن الشيخ مهدي وسألجأ إليه إذا اقتضى الأمر ذلك.

- وفقك الله يا فاطمة وهداك إلى نوره وطريق الهداية.

- اللهم آمين.

خرج أحمد السقاء من جوف الممر الضيق الذي يحجب الفناء عن مدخل البيت، يجتاز الباب الخشبي المحصن فتلفحه حرارة الشمس وعفار الرحبة وصخبها مقارنة بهدوء الدار.

ولج من الرحبة وخرج إلى الخط مستعيدا حركته الرتيبة ونادى بصوته الأجش:

- صلي على النبي... صلي على النبي...

حلم أحمد

جلس أحمد السقاء من الشيخ مهدي نفس الجلسة التي جلسها كل من جابر وزكية من قبل. افترش الأرض على البساط عند قاعدة مصطبة الشيخ الجليل. لم يعد المشهد غير مألوف وصار أشبه بطقس اعتيادي ألفه الناس وانتظروه من يوم للآخر. كانت الجلسة وما تحمله من رؤى ليست فقط تحمل من التسلية ما يُنسي الناس همومهم اليومية ومعاناتهم ولكن أصبحت أيضا حافزا قويا للصبر وتحمل بطش الطغاة وظلم البغاة.

- رأيت نفسي في هيئة غريبة. كنت حليق الشعر وكان الجو شتويا، شديد البرودة. كان البرد قارسا. الناس من حولي متدثرون في ملابس صوفية ثقيلة. يخفون آذانهم وأنوفهم بقطعة من الصوف اتقاءً لبرودة الطقس. وزاد من استغرابي لهيئتي منظر ذقني. كان نصفه محلوقا والنصف الآخر في مكانه.

و لم تكن هيئتي هي أغرب ما في الأمر. فإذا بيدي اليمنى قد أصابها جرب. وأنا أحكها بعنف في مشيي. وبينما أنا سائر، مشغول بحك يدي، لاح أمامي حاكم سلطنة بلاد المشرق والمغرب. وهو كما تعلمون كل من تبقى من سلاطين زماننا في البلاد.

و ما زلت سائرا في الأرض حتى سقطتُ سقطة مهولة في حفرة عميقة. فاستغثت بمن يرفعني. فلم أجد لندائي مُلَبيا. فحل اليأس في صدري. قبعت في مكاني عاجزا ثم تفتق لذهني أن أتفقد الحفرة التي سقطت فيها. فإذا بي أجد فيها ما لذ وطاب من المأكل وشرابا طهورا لم أتذوق مثله من قبل. وكان الماء يتدفق من نهر النيل. كان الماء في بادئ الأمر كدرا. بني اللون. مضطرب المزاج. شديد البأس. تحسه غاضبا. وإذا به، بقدرة قادر، يهدأ فيصير رقراقا. صفصافا. عذبا. فاقتربت منه وشربت من مائه. فغمرني إحساس مبهج بالارتواء والسعادة.

تفسير حلم أحمد

استمع الشيخ مهدي إلى الرؤية الجديدة بحماس واهتمام شديدين. كانت الأحلام تزداد تشويقا والصور فيها أكثر خيالا وتَلَوُّنًا. دقق في كافة التفاصيل التي تسرد له، ركز في المعاني المستترة ومفاتيح الحلم، زاغ بصره ومال برأسه صوب اليسار. مط شفتيه وتململ قليلا ثم اعتدل في جلسته وقال:

- اعلم يا بني أن هيئتك كما رأيتها من شعر محلوق في وقت الشتاء إنما هي دليل على الهموم والأنكاد. وأن رؤيتك للجرب في يدك اليمنى إنما هو تأكيد على هذه الهموم والمحن التي تمر بها وتحس بها في حياتك ومعيشتك.هموم تجعل من حياة الإنسان بؤسا لا قوى للمرء عليها. وهذا واضح من فساد الأحوال كما رأيت السلطان في صورته الحية. فوصل الحال إلى الذل والمهانة ما لا يمكن السكوت عليه.

لكن هذا الوضع لا يدوم طويلا. فسرعان ما يحل الأمن مكان الخوف. الخلاص من الشدائد مكان الحياة العسيرة وتتبدل الأحوال فيرزقك المالك من حيث لا تحتسب.

وأما نهر النيل الذي رأيته في منامك فهو دليل على سلطان يأتيك وقوة تنالها. وأما تبدل حال الماء من مكدر إلى رائق سائغ فهو تبدل الحال من الهم والخوف والشدة في الحياة إلى نعيم وخير كثير ولذاذة عيش.

الحلم كما ترى يا بني يعكس صورة من حياتنا ومعاناة الناس اليومية ولكنه في الوقت ذاته يبشر بالخلاص من الشدائد وينبئ بالرزق الوفير من بعد عناء وكرب.

تكاثر حلم أحمد

وكأنها أصبحت عادة استحدثها الناس، لم يلبث الليل أن ينقضي حتى كان في الصباح مئات من النسخ المختلفة لحلم أحمد قد انتشرت في الأسواق والأزقة، يحملها الباعة والمشترون، الرجال والنساء وحتى الأطفال.

أصبحت الأحلام تنتقل بالعدوى وكأنها شيء يتبرك به الناس ويؤمنون أنها تجلب الفأل الحسن، فيتمنون أن يحلموا حلما مشابها وفي بعض الحالات يختلقون أحلاما حتى لا يشذوا عن القاعدة العريضة الذين يصيبهم الحلم من بعد سماع رؤى الحالمين وتفسير الشيخ مهدي لها. كان الجميع يرون أن تفسير الشيخ الجليل يجلب البركة ويدعو للتفاؤل، وكانت تفسيراته تعيد الأمل من بعد انقطاع أي بادرة أمل في أي تبدل أو تحسن في الأوضاع أو حتى نهاية... لذا كان الناس يبحثون عن بركة تحل عليهم من وقع تفسير الشيخ مهدي لحلمهم أو حلمهم المزعوم.

تكاثرت الأحلام وتطايرت كما حبوب اللقاح في الربيع وكانت الناس في اختراقها الأسواق تسمع مقاطع من هذه الأحلام على كل لسان.

كلمات متطايرة

- رأيت نفسي حمالا مثقلا بحمل لا أقوى عليه. أترنح في مشيي من وقع الثقل ...

- ..وكنت في عز شديد ونغنغة أتمرغ فيها و...

- وإذا بالأرض متحركة، مزلزلة ...

- ..ثم فتحت السماء لي ولسائر أبناء السلطنة بابا عظيما ...

- ..ولاح لي قرص خبز يحمله الخباز ...

- ..فصرت كاتبا بعد أن عشت أميا...

- فكان الياسمين يحيط بنا من كل حدب وصوب.

تقرير عن أحمد

الاسم: أحمد السيوطي.

اسم الشهرة: أحمد السقاء.

السن: 41 ربيعا.

السكن: غير معلوم.

المهنة :سقاء.

التقرير: من واقع مراقبتنا للمتهم السابق ذكره، تأكد لنا فيما لا يدع مجالا للشك أنه متواطئ بتهمة الحلم بالتغيير. وتأتي تفاصيل حلمه مبشرة بتبدل الحال من الخوف إلى الأمان ومن الفقر إلى الرخاء ومن البؤس إلى السعادة.

ولقد اتصل المتهم بالشيخ مهدي ليفسر رؤياه. وبشره الشيخ بتبدل الحال. ولم يلبث الأمر حتى عرفه سكان الحارة أجمعين. تناقل الخبر بسرعة فائقة بينهم. توالد الحلم وتكاثر بين الناس لدرجة أنه صار شائعا في سائر أنحاء القاهرة.

التوصية:

نرى في أحمد السقاء مصدر خطورة قصوى على حكم مولانا والسلطنة نظرًا لما يمثله حلمه كمصدر للأمل والتغيير مما يهدد استقرار حكم مولانا السلطان وأوضاع البلاد.

لذا نوصي بتطبيق أقصى عقوبة على المتهم.

قرار السلطان

قررنا نحن باستئصال الحلم من المتهم ومعاقبته بزرع أبشع الكوابيس لتسكن عقله إلى أبد الدهر.

ينفذ فور ورود هذا القرار.

انتهى

بلا توقيع

تعذيب أحمد

اقتيد أحمد من قفاه إلى ردهة طويلة، مظلمة، يخترقها شعاع ضوء باهت يأتي من شق في الحائط في آخر الردهة. كان هذا الشعاع دليلا للجنود الذين يمسكون بتلابيبه يأخذونه في اتجاهه، أو ربما خلفه، في مكان خلف الدنيا ومناحيها، في مكان لا يعثر عليه أحد ولا حتى الشياطين...

كانت الردهة يسودها السكون اللهم إلا من صدى وقع أقدامهم على الأرض الحجرية، خطوات منتظمة، متناغمة، متناسقة...هل تراها تبجيلا للمصير الذي ينتظره؟ تعظيما لحالة الموت التي لا يشك أنها آتية؟ لم ينقص المشهد إلا موسيقى جنائزية كئيبة تضيف سوادا على ظلمة الردهة الطويلة التي لا تنتهي أبدا. كانت الدقائق تمر ساعات على أحمد فلا أحد يخبره أين يساق ولا لماذا ولا المصير الذي ينتظره. كانت دقات قلبه تتسارع، يتخيل الإجابات كلها على الأسئلة التي تدور في خلده... كان يتخيل كل الاحتمالات المؤلم

منها والمبهج. وهل من الممكن أن تكون النهاية مبهجة؟ لا... كل شيء يوحي بسوء المصير. لعنة الله عليك يا شيخ مهدي... هل هذا هو الأمن الذي يحل مكان الخوف؟ ما ذلك إلا الرعب يضاف إلى خوف... وهل رؤية نهر النيل هي آخر شيء سأراه في دنياي؟ هل سيكون فعلا مشهد تبدل حال النيل أم ذكرى رؤيتي له من القاع؟ عينين مفتوحتين على آخرهما من هول الصدمة؟

أي كذب قلته لي يا شيخ مهدي؟ يا لغبائي وسذاجتي.. كيف أصدق أن بلدا ساده الظلم والفساد على مدار عقود طويلة ولعلها قرون سيتبدل حالها لمجرد حلم جاءني؟ لو كنت أعلم أن هذا الحلم سيأتي بي إلى هذا المكان لكنت أغلقت فمي وكتمت حلمي في داخلي.. كنت سأتعذب قليلا ولكنه كان سينتهي..أما العذاب الذي أنا مقبل عليه لعله يدوم إلى حياة أخرى.. لعله مغلف بألم يكون آخر ذكرى لي في هذه الحياة وأول ما يصاحبني في رحلتي الجديدة...

كانت الردهة طويلة والظلام يشتد رغم اقترابنا من مصدر شعاع النور وكان السواد يلف أفكاري مع كل خطوة أخطوها على إيقاع الخطوات الجنائزية... طم طم طم... طم طم طم...حتى دقات قلبي أصبحت تمشي على هذا الإيقاع وبقوة شديدة لدرجة أنني تخيلت أن قلبي سيقفز خارج صدري ويمشي على الأرض الحجرية بساقين وقدمين لا أعرف من أين آتي بهما...

وصلنا أخيرا. توقفنا. فتح الباب ومع صريره كان عقلي يصرخ ويغطي بصراخه على هذا الصوت المعذب للآذان. حين أصبحنا في منتصف الغرفة انتهت كل الأسئلة وبدأت كل الإجابات تطوف في رأسي في حركة دائرية كدوامة علق بها الغريق... الإجابات تؤول إلى إجابة واحدة غير شافية وغير منقذة... ولكن حتى في حالات الغرق يكون الأمل طائفا في الأفق، ينظر إلى الغريق منتظرا منه أن يلتفت إليه ويؤمن به ليلقي له بطوق نجاة يخلصه من عذاب الانتظار. دخلوا وأغلق الباب خلفهم في حركة مباغتة خلعت قلبه من ضلوعه. ثم كان صوتا آمرًا:

- ابدءوا العملية....

كان الصوت مُلخِّصا لكل ما كان سيأتي ولكنه لم يوحي إطلاقا بأن أحمد كان سيخرج من هذه الغرفة ويلقى في أزقة القاهرة حيًّا مرة أخرى.

كابوس أحمد

- أخاف يا نائبي الجميل أن نكون قد استنفدنا كل الكوابيس. ماذا عسانا نفعل بالسقاء؟

- لا يا مولانا، لا زال عندنا الكثير مما نبثه في نفوس المتآمرين.

- مثل ماذا؟

- لقد أحلنا بينهم وبين لقمة العيش، ثم جعلناهم يعيشون في مذلة بالمقارنة لعلية القوم وأسياده فيتبقى لنا أن نهينهم يا مولانا السلطان ونحقر من شأنهم . ومن شأن كل ما يمس هويتهم التي يعتزون بها.

- وكيف نقوم بذلك؟

- نحط من قدر الإنسان. نعامله معاملة أسوأ من الحيوان. نعيقه عن حصوله على أبسط الحقوق وأكثرها بديهية. نجعلهم يتمنون الموت عن المعاناة.

- لقد أثرت فضولي، قل لي كيف نفعل ذلك؟

- هذا أمر غاية في اليسر، سنجعل نصيب المصري من المياه العذبة أقل من حد الندرة ونجعل جهاز التنمية الإدارية يرفض تغيير مواعيد العمل لحل أزمة المرور ونزيد من طول طوابير الانتظار للحصول على الأنابيب ونرسي بعض المفاهيم الجديدة:

الطبقية هي أن أجد في طبقك طعاما لم أتذوقه يوما، وأن تجد في طبقي طعاما تقدمه كل يوم لحيوانك.

21 يناير 2010

- ثم نعود فنهينهم في آدميتهم ونحقر من شأنهم:

نقص المياه يهدد بعودة عشرات المدن والقرى إلى القرون الوسطى

19 مايو 2010

مواطنو المحافظات.. العطش فوق رءوسهم ومياه الصرف تحت أرجلهم.

سوق سوداء لمياه الشرب في المنيا والشرقية..

20 مايو 2010

- ونقنعهم أن الأزمة غير مقصورة عليهم من دون سائر الناس ولكنها تمس بعض كبارات السلطنة الذين يعيشون في أفخر الأحياء فنجعل الشركة القابضة لمياه الشرب: تبعث مناديا ليعلم العوام أن «**أزمة انقطاع المياه في القاهرة الجديدة مستمرة 36 ساعة**» وأن حتى أكبر رجال السلطنة يعانون من نفس الظروف القاسية. ندعي أنها إرادة المولى عز وجل. نشعرهم أننا متساوون في الظلم:

مسئول كبير أبلغ أحد الوزراء باجتماع رئاسي فرد: «المياه مقطوعة ومش عارف أحلق ذقني».

15 أغسطس 2010

- فينصرفون عنا ويتفرغون لحل مشكلاتهم بأنفسهم. وسترون يا مولاي كيف سيتدبر هذا الشعب أموره بنفسه بشكل لا تستطيعون أن تتخيلوه.

أزمة المياه تعيد المصريين إلى مرحلة الآبار والطلمبات الحبشية.

23 أغسطس 2010

انقطاع المياه عن 9 قرى في طما.. وأهالي الفردان يشربون من الترع.

12 سبتمبر 2010

- صدقت يا نائبي العزيز، هذا شعب مدهش فعلًا، كنا قد نسينا الآبار والطلمبات الحبشية منذ عهد طويل. ولكن أن يشربوا من مياه الترع فهذا أمر عجيب فعلا...

- حتى الخبز نجعله صعب المنال:

قدم أمس أهالي قرية الصنافين التابعة لمركز منيا القمح بمحافظة الشرقية عدة شكاوى إلى رئيس الوحدة المحلية والمجلس المحلي بالقرية يتضررون فيها من قيام زوجة صاحب مخبز بسبهم والتشاجر معهم لرفضها بيع الخبز لهم وبيعه لصالح أصحاب الرواتب الشهرية.

7 يوليو 2010

أزمة رغيف الخبز مستمرة لليوم الثالث...

9 يوليو 2010

أزمة الخبز تدخل مرحلة «ضرب النار»

مواطن يطلق الرصاص في الهواء للحصول على 20 رغيفا بالشرقية

12 يوليو 2010

- ثم نذلهم. نمنحهم نفحة من خيراتنا. لكن في ذات الوقت نهينهم ونستمتع بمشاهدتهم وهم منكسرون، يلعقون الثرى من أجل قطرة ماء أو لقمة عيش:

لليوم الثاني.. تجمهر المئات أمام «وطني الدقهلية» انتظارًا لشنطة رمضان

.. والاستعانة بالشرطة لتنظيم الصفوف

18 أغسطس 2010

- هاها ما أجمل منظر جنود الدرك وهم ينظمون الصفوف يا نائبي اللامع. وما أحلى مشهد وصول الناس للوقوف في الطابور من الفجر...

- ونعيد الكرة... فنجعلهم هذه المرة يعيشون في ظلام مثل الخفافيش.

تخفيض إنارة الطرق والشوارع بنسبة 50٪.

21 يوليو 2010

وزارة الكهرباء تعيد سكان عشر محافظات إلى «العصور الوسطى»...

19 أغسطس 2010

أزمة انقطاع الكهرباء تتفاقم في كل المحافظات

21 أغسطس 2010

- ثم نبدأ في مرحلة القضاء عليهم تماما. نوفر الماء لكن بمقابل. فنجني أرباحا طائلة تعود على خزينة السلطنة بالخير الوفير.

«جركن» المياه بجنيه في قنا وبأربعة في الفيوم.. ومواطنون في بني سويف يلجأون للطلمبات «المالحة».. وأهالي سمالوط يشربون من «البحر».

25 أغسطس 2010

.. وفي قنا شراء الماء من باعة الشوارع

26 أغسطس 2010

- فيلجأ الناس إلى القضاء على حياتهم لعدم قدرتهم على تحمل الحياة الصعبة والمهانة اليومية:

لم يجد عمرو مرسي عبد اللطيف المقيم في شارع داير الناحية بالعجوزة وسيلة يعلن بها احتجاجه على فشله في تجهيز نفسه للزواج من حبيبته مُنى، بعدما تقدم لخطبتها 3 مرات، إلا أن يشنق نفسه بحبل مربوط بأحد أعمدة الإنارة على كوبري قصر النيل

3 يونيو 2010

فشل في تدبير نفقات خطوبة ابنته فانتحر تاركا الديون وإيصالات الأمانة لأسرته

الابن: بابا ظل يبكي طوال الليل ولم يستيقظ في الصباح

9 يوليو 2010

انتحار طالب في طب الزقازيق لمروره بضائقة مالية

27 ديسمبر 2010

- ومن لم يُنهِ حياته بنفسه، يموت ألما وحزنا على المدى الطويل:

قلوب المصريين هي الأكثر ألما ومرضا بسبب القهر والظلم.. أضحينا نلاقي القهر والظلم عند كل منعطف.

3 مايو 2010

35 مليون مصري يشربون مياها ملوثة

21 يونيو 2010

- وذلك يا مولانا السلطان كفيل بأن يقتل 90 ألف مصري سنويا ومن نجا منهم فمصيره الدواء.

10٪ من الأدوية في أسواق مصر مغشوشة

9 أكتوبر 2010

مصر خامس أسوأ دولة على مؤشر البؤس العالمي

25 يوليو 2010

- ونتمادى إلى أقصى حد...

- وما هو؟

- نهينهم في هويتهم وماهياتهم. في فخرهم واعتزازهم:

آثار سقارة وأبو صير.. برائحة القمامة.

آثار سقارة محاطة بالقمامة! نعم بالمعنى الحرفي للكلمة.. ليس هذا فحسب، بل إن أحد أكبر مقالب القمامة في مصر على بعد مسافة قريبة من المنطقة الأثرية، إن لم يكن داخل نطاق حرم الأثر.

27 مايو 2010

مياه الصرف تحاصر معبد «حتحور» و«سيتي الأول» و«التحنيط» في ميت رهينة

25 أكتوبر 2010

بلطجة وهتك عرض وضرب في مدارس متفرقة بالمحافظات

30 أكتوبر 2010

علقة ساخنة لمدرس رفض الاعتذار لتلميذته في الطابور

5 نوفمبر 2010

علاء الديب: لا أستطيع نزول الشارع حتى لا أرى غياب الكرامة في عيون الناس

5 نوفمبر 2010

مليونا طفل خارج التعليم 80٪ منهم إناث.. وثلثا المتعلمين نجحوا بالغش

37٪ من الفتيات تزوجن قبل 18 عاما و44٪ تعرضن للتحرش و75٪ من الشباب يرون أن المرتديات لملابس مثيرة يستحققن المعاكسات

15 ديسمبر 2010

أوضاع الأطباء في مصر متردية.. وشغالات البيوت أفضل حالا منهم

13 سبتمبر 2010

وزير التنمية الاقتصادية:

.. كان ممكن الحكومة تتدخل بدري شوية وتزود الطماطم في المجمعات والمواطنين مش حيموتوا لو قعدوا أسبوع ماكلوش سلطة.

16 أكتوبر 2010

في الدرجة الثالثة من قطارات الصعيد، تمرن الحكومة المواطنين وتدربهم على أن كلمة الكرامة لا محل لها من الإعراب.. المسألة باختصار أنه لا يمكن لمصر أن تتقدم من دون تَغيير من مستوى قطارات الصعيد العادية. السفر في قطارات الصعيد العادية غير

المكيفة «بهدلة». لكن المأساة أن كثيرين يتمنون الحصول على تذكرة من أجل هذه «البهدلة» ولا يستطيعون ..

12 نوفمبر 2010

أسرة قتيل عبود: دفعنا غرامة 500 جنيه رغم غرق ابننا في الترعة.

أحمد شقيق القتيل: شرطة الإنقاذ النهري ماطلتنا في استخراج الجثة فسبحنا بأنفسنا ووجدناها.

13 نوفمبر 2010

- يا للهول؟ وهل تتوقع أن يصمد العوام أمام كل هذه الأهوال؟

- سيعيشون يا مولاي السلطان... ولكن كما نريدهم نحن أن يعيشوا...

- وكيف يكون ذلك؟

- منكسرون ... أذلاء...

- وهكذا يقبلون كل ما يحدث ويمتنعون عن التدخل في قرارات السلطان وشئون البلاد ...

- أصبت يا مولانا. فنستريح من هذا العذاب ونتفرغ لأعمالنا.

- كم تعجبني أفكارك النيرة، لقد نلت إعجابي وسأمنحك المزيد من الإقطاعات.

- أشكر مولانا على كرمه الذي اعتدناه منه دائما ولكني لم أفعل شيئا إلا واجبي في حماية البلاد وتجنيب مولانا السلطان من منغِّصات لا داعي لها.

- دعك من هذا الهراء واستمر في هذا الأداء إلى أن نقضي تماما على هذه الأحلام.

- أمرك مطاع يا مولانا السلطان.

* * *

فاطمة

فاطمة

تستيقظ فاطمة كل يوم على صوت أذان الفجر، تقوم من رقدتها، تتوجه بعينين شبه مغلقتين إلى الزير الموجود خارج غرفتها طستها النحاسي الصغير تاركة الباب مفتوحا، تغترف من ماء الزير وتصب في طستها، تعود إلى الغرفة الصغيرة، تغلق الباب ثم تغتسل في طقس اعتيادي بل ولا شعوري. تبدأ في الاستفاقة تحت تأثير برودة المياه. تحس بالدم يجري في رأسها ووجهها وأطرافها فتدب فيها الحياة رويدا رويدا.

بعد الانتهاء من طقوس الاغتسال، تتحول إلى مراسم اللبس وكانت متعتها الحقيقية... كانت على الرغم من كونها خادمة في منزل الست حفيظة إلا أنها كانت تهتم بمظهرها من حيث الملبس وتكحيل العينين وتسريح الشعر وما شابه ولعلها في ذلك كانت متأثرة بمخدومتها الست حفيظة التي كانت شديدة الاهتمام بمظهرها وتحافظ على رونقها وجمالها طوال ساعات اليوم. وكان هذا بالطبع يستوجب من فاطمة عملا مضنيا لتجميل سيدتها وعلى

الرغم من ذلك فقد استفادت فاطمة من هذا العمل المضني وبدأت تطبق ما تعلمته في تجميل نفسها وكانت النتيجة مبهرة على الرغم من تواضع قدرات فاطمة المادية والتي كانت تعوقها من شراء الملابس المناسبة والزينة المنتقاة وأجود أنواع العطور والزيوت والكحل. فما كادت أقدامها تطأ أول حبة تراب في الطريق إلى الخط في رحلتها الصباحية إلى الأسواق لقضاء حاجات البيت إلا وكانت الأعين تبدأ في التعلق بها ومتابعتها ومن حين إلى آخر كان يصل إلى سمعها تعليقات فيها الكثير من الغزل والإطراء وكانت مثل هذه التعليقات تلقى استحسانا من فاطمة وإن كانت لا تظهره بشكل مباشر.

كانت شهرة فاطمة في أسواق خط بين القصرين وباب الزهومة والقفيصات وما غيرها تفوق شهرة أكبر تجار الحي بل ومحتسب القاهرة. كانت معروفة لدى الجميع بحلاوة لسانها وذكائها الشديد وقدرتها على الإتيان بالمعسول من الكلام مما أهَّلها أن تكون أكثر خدم الست حفيظة قربا إليها لما تتمتع به من فطنة ولباقة.

كانت فاطمة في مشوارها اليومي تخرج لشراء الخضراوات والفواكه واللحوم اللازمة لوجبات اليوم، ثم تتوجه للشرايحية[1]

(1) الشرايحية: نوع من المطابخ يأتي إليه الناس بالخضراوات و اللحوم و يقوم الطهاة بتتبيلها و طبخها و توصيلها إلى المنازل .

ليقوموا بإعداد أشهى المأكولات ثم يرسلونها إلى بيت الزبون. تتضاحك مع التجار والباعة الجائلين بينما تقلب البضائع بين يديها وبأعينها بشيء من التقزز؛ حيلة تعلمتها للمساومة على سعر السلعة. تصادف خادمات يعملن في منازل مجاورة، تتعرف إليهن، تتجاذبن أطراف الحديث، تقارنَّ بين أسعار السلع وتتبادلن أخبار البيوت وأسرارها وما يدور فيها من مشاحنات ومشاجرات بين أهل البيت.

تنتهي من جولتها الصباحية لتعود إلى الدار وتعمل على تجهيز الست حفيظة، تلبيسها وتزيينها، ثم إعداد موائد الطعام... مهام وأعمال لا تتغير بتاتا، فيها من الرتابة والملل ما لم تعرفه فاطمة في حياتها من قبل ولكنها على الأقل تجد ما تأكله وتلبسه ولا تضطر إلى أن تحمل هموم قوت يومها كما تسمع من كافة التجار في الأسواق وكما ترى من أحوال الناس وسوء وضعهم وانتشار الفقر المدقع بشكل لافت للنظر بحيث لا يمكن أن تخطئه عين. كانت فاطمة تتعجب من التباين الشديد بين أحوال العوام والسادة من القوم كالست حفيظة وزوجها... كيف يمكن لأناس في نفس المدينة بل وفي نفس الحي يكون بينهم فروقات شاسعة إلى هذا الحد؟ ناس يقطنون البيوت الباسقة، الفارهة، مزروعة بأشجار وارفة أوراقها يتظلل بها قاطنيه في حين على بعد بضع عشرات من الأذرع وخارج البوابات المنيعة تجد من يفترش الأرض، متمرغا

في التراب، لابسا الجوخ أو أسمالا من الصوف تسترهم صيفا وشتاءً، يأكلون من مخلفات المطابخ والشرايحية ...

كيف وصل الحال بهذه المدينة العظيمة إلى هذا الحد؟ صراع دائم على السلطة بين المماليك والأمراء من بني العجم وأهل البلد من الناطقين بلغتها الأصلية الأصيلة لا حق لهم ولا نصيب في أبسط البسيط من لقمة عيش ومكان يأويهم من قيظ الصيف وصقيع الشتاء وكلاب الليل ...

كانت تمر عبر الأسواق ثم تعود إلى البيت لتتناطح الأفكار في رأسها حتى يسخن رأسها وتخور قواها من عجزها عن إيجاد رد يشفي غليلها ويهدئ من روعها.

في هذا اليوم، خلدت إلى النوم من فرط الإجهاد وكان ما كان.

حلم فاطمة

- يا شيخ مهدي... يا شيخ مهدي...

سأوفر عليك الوقت والسلامات والمقدمات وأدخل في لب الحلم مباشرة، فالأمر لم يعد يحتمل أية إطالات. سأقص عليك مباشرة ما رأيته :

كان الدهر كله ليلا، القمر والكواكب فيه تدور حول السماء بلا انقطاع، كان يصاحبهم رعدا وبرقا، كانا في حدتهما وقوتهما مثارا لخوف شديد. كان البرق يضيء السماء من أدناها إلى أقصاها وكان الرعد يصم الآذان، تهتز له الأبدان خوفا وذعرا، ترتجف منه الأوصال. كانت ليلة مرعبة.

كنت خرجت من داري غاضبةً، مُقَطّبة الحاجبين، مكفهرة، حانقة على الدنيا وما فيها. فركبت السفينة، فإذا هي قائمة، لا تبرح مكانها، راسخة في موضعها، لا تسير إلى مجراها، لا تجري مجرى الدم من العروق، لا تتزعزع. كانت ببساطة غير قادرة على أن تسير في البحر.

وفوجئت بنفسي أسقط في الماء. لا أعرف كيف. لكني أتذكرني أحاول جاهدة الخروج من البحر سباحة. عجزت عن العبور. رجعت إلى الوراء بدلا من التقدم إلى الأمام.

وإذا بالشرطي وأعوانه ينقضون عليَّ. يمسكوني من تلابيبي. بأي تهمة؟ لا أعرف. وامتلأ المشهد دما. فكنت ملقاة في واد من الدماء. كان ينفجر من جسدي. يخرج منه بعنف وغزارة. كنت أسبح فيه. وإذا بي أدفن في قبر من غير موت. ما الذي أتاني في هذا الموضع؟ كيف دفنت؟ كيف سال مني هذا المقدار من الدم؟ كيف لم أمت؟

فجأة... رأيت وسائر أهل هذا الموضع إسرافيل عليه السلام. رأيته. رأيناه ينفخ في الصور. سمعنا الصوت. أو هكذا خيل لي. كان الجميع يصم آذانه من علو الصوت على ما أظن. فخرجت سحابة كبيرة لتحجب الشمس. أين كانت الشمس؟ وكيف توارت مرة واحدة؟ ومن أين ظهرت هذه السحابة؟ لم أفهم. ولكني أقص عليكم ما رأيت. المهم، لاحت الشمس مستترة خلف السحابة.

ثم رأيت الموتى يثبون من قبورهم. يعودون إلى ديارهم. ونزلت الملائكة إلى الأرض. نزلت وهم يتكلمون فيما بينهم بكلام في الخير والبشرى.

و انسل الفجر من رداء الليل الأسود، لاحت بشائره وأعلن نهاية السواد. فوجدتني في داري، مستلقية على فراشي، ترتسم على وجهي ابتسامة كلها نقاء وطمأنينة.

و ظهر شخص. لم أتبين ملامحه. تهيأ لي أن ملامحه تماثل ملامح أهل الأرض أجمعين. وسرعان ما تحول نجما من نجوم السماء. كان بريقه شديدا. تطلع إليه الناس من حولي. تطلعوا كلهم. واهتدوا به ليصلوا إلى وجهتهم.

فلما وجدت من هذه الصور أشكالا غير مألوفة، انتفضت من رقدتي، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، توضأت، صليت ركعتين وقدمت إليك لعلك تستطيع تفسير ما لاح لي من صور.

تفسير حلم فاطمة

اعتدل الشيخ مهدي في جلسته، صمت قليلا، يقلب الكلمات والخيالات في رأسه قبل أن ينطق ويقول :

- فاعلمي يا ابنتي أن بعد العسر يسرا وأن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ولذا يا ابنتي فالظلام محيط بنا ويسود الفقر والجهل والجوع والموت طالما لم يتحرك أحد منا. وأن رؤية القمر والكواكب تدور حول السماء في ظلمة الليل ما هو إلا ظلم يصيب أهل هذا المكان من وزير أو كاتب في ديوان السلطان. وأما الرعد والبرق المصاحبين للظلمة فتكون علامة على شدة الظلم والقهر.

و اعلمي يا ابنتي أن رؤية الخروج من الدار غاضبة هي رسالة تنذر بالشر حيث إنك تُسجنين وتُحبسين. فاحترسي وتوخي الحرص فيما تفعلين. وما السفينة التي ركبتيها التي تأبى أن تتحرك إلا تأكيدا

على حبسك وسجنك. فأنت عاجزة عن الحركة ومستودعة نطاق ضيق لا تستطيعي الخروج منه.

ولكني كما ذكرت لك سلفا يجب أن نغير ما بأنفسنا لننجو من البطش والقهر. وها أنت تحاولين أن تخرجي من المأزق الذي أنت فيه لكنك تفشلين. فاحذري من بطش حاكم جائر. فيأتيك سلطان شرير يحاول النيل منك يلازمه فزع وعذاب وحزن. فانتبهي لنفسك يا ابنتي. وانتبهي لما تدعين إليه. فالخطر يحيط بك.

و أما وادي الدماء الذي يحيط بك فهو المكان الذي تسفك فيه دماؤك. فاعلمي يا ابنتي أنك ستُحاربين وتُقاتلين بشتى الطرق بسبب ما تدعين إليه. وثقي أنك ستُحبسين وأنه سيصيبك هم كبير.

لكن الشمس لا يمكن لها أن تغيب على طول المدى. ولا بد أن تشرق يوما لتجلب لنا الدفء والطمأنينة. الأمن والأمان. فاطمئني فإن رؤيتك لإسرافيل عليه السلام ما هي إلا بشرة خير إيذانا بهلاك الظلمة وبسط العدل في بلد انتشر فيه الرعب والتعذيب. فتحجب السحب الشمس إيذانا بخلع السلطان الظالم عن ولايته وعرشه. فلا مكان لظالم في هذه الدنيا. ويطلق سراح الأسرى. فيخرجون من سجونهم.

واعلمي يا ابنتي أن رؤيتك للملائكة وقد هبطوا إلى الأرض وهم يتحدثون بكلام في الخير إنما هي بشرى باستشهادك ونيلك السرور والسعادة في الآخرة فأبشري يا ابنتي فمكانك في الجنة محفوظ.

ويخرج الفجر ببشائر يوم جديد يحمل فرحا ويسرا متتابعا.

وأما الشخص الذي تحول نجما فهو المُخَلِّص الذي يتبعه الناس ويحتاجون إليه في أمورهم ويطلبون تدبيره ورأيه في سائر الأمور.

فاطمئني يا ابنتي فإن رؤياك لا تحمل إلا أمارات الخير والأمل في غد أفضل نتخلص فيه من كل ظالم وحاكم جائر تسبب في شقاء رعيته بفساده وبعده عن المولى عز وجل. ولن يكون هذا إلا بخسائر من شهداء ومساجين. ولكن لكل منهم مكانه ومقداره الذي يحفظه له مالك هذه الدنيا والدار الآخرة.

فأقبلي عليَّ يا فتاتي لكي أباركِكِ، فأنتِ مقبلة على شأن عظيم.

تكاثر حلم فاطمة

على الرغم من تفسير الشيخ مهدي الذي حذر فيه فاطمة من الأسر والحبس والانتهاء بالاستشهاد في سبيل تغيير تدعو له وعلى الرغم من أن الكثيرين خافوا من بئس المصير إن جاءوا بأحلام متشابهة فإن تنويعات على حلم فاطمة لم تنقطع وكانت الكلمات لا تزال تتردد في الأزقة والأسواق.

- خرج عليَّ تنين مهول، فرأيته وكأنما جرني إلى الماء...

- .. وكنت قد دعيت إلى مجلس مجهول، فيه فاكهة كثيرة وشراب وفير...

- أما أنا، فرأيت ميتا يمد إليَّ يده بدنانير لكني لم آخذها منه...

- .. فخرجت من قبري الذي دفنت فيه حيا...

- .. وطويت خيام الملك...

تقرير عن فاطمة

الاسم: فاطمة.

اسم الشهرة: فاطمة الجارية.

العمر: 28 ربيعا.

المهنة: جارية.

السكن: بيت الست حفيظة.

التقرير:

من واقع مراقبتنا للمتهمة السابق ذكرها، تأكد لنا بما لا يدع مجالا للشك أنها متواطئة بتهمة الحلم بالتغييروالدعوة للانقلاب على حكم مولانا السلطان. تأتي تفاصيل حلمها مؤكدة بالقضاء على مولانا السلطان والوزراء والأمراء في البلاد وظهور مخلِّص للبلاد من حكم الاستبداد والفساد.

ولقد اتصلت المتهمة بالشيخ مهدي ليفسر رؤياها. وبشَّرها الشيخ بتبدل الحال. ولم يلبث الأمر حتى عرفه مرتادو السوق أجمعين. تناقل الخبر بسرعة فائقة بينهم. تو الد الحلم وتكاثر بين الناس لدرجة أنه صار متداولا في كافة المجالس والحمامات وأماكن التجمهر.

التوصية:

نرى في فاطمة الجارية مصدر خطورة قصوى على حكم مولانا والسلطنة نظرا لما تبثه من سموم بدعوى التغيير.

لذا نوصي بضرورة التصرف السريع في شأنها وذلك للسيطرة على حجم الاضطرابات التي قد تتسبب فيها.

قرار السلطان

قررنا نحن بضرورة القضاء على هذا الحلم بشتى الطرق نظرا لما فيه من خطورة تهدد استقرار السلطنة وأولي الأمر فيها. كما نطالب بالشدة في التحقيق للوصول إلى حقيقة الشخص المخلِّص الذي ورد في الحلم.

ينفذ هذا القرار فور وصوله إلى أيديكم.

انتهى

بلا توقيع

تعذيب فاطمة

فُتِحَ باب الحجز الحديدي، أصدر صريرًا طويلًا ومخيفًا، دُفِعَت فاطمة إلى داخل الغرفة دفعة قوية أسقطتها على وجهها. انتصبت فاطمة لتجد أمامها كلا من جابر وأحمد وزكية. كانوا يحملقون فيها استغرابا وكأنهم يتساءلون عما جاء بها إلى هذا المكان.

- ماذا تفعلون هنا؟ فاجأتهم فاطمة بالمبادرة... وما الذي أصابكم؟ ما كل هذه الكدمات وآثار الدماء التي تغطيكم؟

كان السكوت هو سيد الموقف... انتظرت فاطمة أن يردوا عليها ولكن ما من رد أتاها...

- ألم يأتِ كلا منكم حلمٌ توجهتم على إثره إلى الشيخ مهدي لتفسيره؟

الآن بدأت أفهم كل شيء...

لقد قُبِضَ علينا لأننا نحلم...

وآثار الدماء تلك ما هي في الواقع إلا آثار التعذيب الذي وقع عليكم، أليس كذلك؟

الآن فهمت تفسير الشيخ مهدي بخصوص الخطر الذي سأتعرض له... سيتم تعذيبي إذًا إلى أن ألقى حتفي. سأموت في سبيل الدفاع عن حلمي...

نعم نعم...

الآن بدأت أفهم...

لكن هل سيوسطوني؟ هل يخوزقوني؟ أم يشنقوني؟

ماذا تعتقدون أنهم بي فاعلون؟

- في الواقع يا فاطمة، بدأ جابر، ما سترينه من التعذيب الذي تتوقعينه هو لا شيء بالمقارنة بما سوف يفعلونه بك...

- و ما هو؟

لم تنتهِ فاطمة من سؤالها حتى جاءها صوت الباب الحديدي يفتح من جديد. ما أن سمعت الصرير حتى استدارت لترى جنديين يدخلان الغرفة، يجذبانها بعنف من ذراعيها ويخرجانها من الغرفة ويلطمان خلفهما الباب.

خرجت فاطمة في حالة ذهول من كل شيء... الأسباب التي أتت بها إلى هنا، التعذيب الذي نال جابر وأحمد وزكية، التعذيب الذي ينتظرها، كلام جابر عن نوع من التعذيب لا تتوقعه وكلام الشيخ مهدي بأنها ستلقى حتفها وتموت شهيدة الشأن الذي تدافع عنه.

كابوس فاطمة

- لكني لا زلت قلقا من الرؤية المتكررة للمخلِّص هذا.

- لا تقلق يا مولانا السلطان سوف نبث برسالة واضحة لكل من سولت له نفسه مجرد الأمل في الخلاص من حياتهم البائسة. رسالة لكل من ظن أنه بمجرد التمني سيجور على أسياده وأولي الأمر منهم... فسنجعل «**الشهر العقاري يرفض توكيلات البرادعي والخارجية تمنحها**».

وسنلزم الموظفين بالمحافظات برفض استخراج توكيلات للمواطنين «بأوامر عليا». وسنصرح بأن «**توقيعات البرادعي يشوبها التزوير ولو أردنا جمع الملايين لفعلنا**».

- مدهش وماذا نفعل في الآخرين؟

- هذا أمر جد يسير فسنقوم بعمل اللازم لضمان «**توقع اختفاء الإخوان.. وعودة: موافقون ..موافقة**».

- سيكون ذلك مثاليا، فأنا أكره المعارضين.

- و أما الزُّعر[1] الذين يعتقدون أن أحدهم سيكون المهدي المنتظر فسوف ينتظرهم ما لا يطيقونه من قوات الداخلية:

قال مصدر أمني أمس إن وزارة الداخلية حشدت أكثر من 5 آلاف جندي لنشرهم بشوارع القاهرة المؤدية إلى المطار اليوم لمنع أنصار الدكتور محمد البرادعي من الذهاب لاستقباله بالمطار.

19 فبراير 2010

- وعلى النساء اللائي يعتقدن أنهن قادرات على مقارعة الرجال ومنازلتهم في كافة مناحي الحياة أن يلتزمن بيوتهن وإلا عرضناهن للمذلة والهوان...

..لقد تم حصار الشبان والبنات بواسطة كردون من عساكر الأمن المركزي، ظلوا يضغطون على أجساد الشبان حتى كادوا يخنقونهم وسرعان ما انقض عليهم رجال فرق الكاراتيه التابعة للشرطة، راحوا يضربون الشبان والبنات بالعصي الغليظة على رؤوسهم وأجسادهم.

...

... كان هذا اللواء يأمر بإخراج البنات من الكردون، واحدة وراء الأخرى، يصرخ بصوت كالرعد في المخبرين: «هاتوا لي البنت المومس اللي هناك دي».

13 أبريل 2010

- ونمشي بالمنادين في المدينة مهددين ومنذرين.

---

(1) الزعر: جمع أزعر ومعناه الشخص سيئ الخلق.

نداء

يا أهالي القاهرة ...

نوصي بالمعروف وننهى عن المنكر

ينهي إليكم

متولي حسبة الديار المصرية

فاسمعوا واعوا

حرم على النساء كافة

لبس قمصان بأكمام واسعة

وكل من خالفت

فستقص الأكمام

وتضرب ضربا مبرحا

فاسمعوا

واعوا ...

* * *

- وأن كل من ظن أنه قائد وزعيم عليه أن يتذكر أن ما من شيء يجوز في هذه البلاد إلا بتدبير من مولانا السلطان.

وقابل الشريف حماس قناوي وانفعاله بانفعال مضاد ورد عليه قائلا: انتخابات الرئاسة التي تمت في 2005 كانت انتخابات تنافسية لأول مرة في مصر وممدوح قناوي كان أحد المرشحين للرئاسة ..

وذكر الشريف قناوي بالـ ½ مليون جنيه الذي أعطته له الدولة للإنفاق على حملته الانتخابية ..

22 فبراير 2010

- وسيكون مصير كل مختال فخور هو الحبس في أظلم السجون.

حملة اعتقالات الإخوان تتواصل

اعتقال 21 من قيادات الغربية وكفر الشيخ

26 فبراير 2010

اعتقالات بالجملة في صفوف الجماعة في المنيا والشرقية.. وحصار بـ «فرق الكاراتيه ومكافحة الشغب» لمسيرة في الدقهلية.

30 مايو 2010

حملة اعتقالات تطول 74 من أنصار مرشحي الإخوان في الانتخابات

27 أكتوبر 2010

الإخوان: اعتقال 361 ومداهمة 106 منشآت اقتصادية بسبب الانتخابات

31 أكتوبر 2010

- ونخرج عليهم بمنادٍ يزف لهم أخبارا عن حريتهم في الكلام وممارسة الحياة كما يودون، ولكن بحدود... فيزف إليهم مكرم محمد أحمد، نقيب الصحفيين، أن «**اقتراحه بتخصيص يوم واحد أسبوعيا للوقفات الاحتجاجية على سلم النقابة جاء على خلفية تلقيه طلبات لتأجير الأدوار الثلاثة الخالية فيها**».

- ولمزيد من السيطرة، سنخرج أكثر من شخص حاملا رسائل متشابهة في المضمون ومختلفة في الشكل عن حرية التعبير ولكن بالطبع في حدود ما يسمح به مولانا السلطان:

منع رئيس جامعة القاهرة أساتذة الجامعة من «الإدلاء بتصريحات صحفية قبل إبلاغ مكتب رئيس الجامعة بها بمدة 15 يوما».

1 ابريل 2010

رفضت الرقابة على المصنفات الفنية أمس الأول فيلم «الخروج» تأليف وإخراج هشام عيسوي وهو الفيلم الذي يطرح مرة أخرى فكرة الزواج بين المسلمين والمسيحيين، وأيضا فكرة الطلاق في الديانة المسيحية وعوائقها.

9 أبريل 2010

- فنحن يا مولانا لا نريد إيهام الناس أن هناك أزمات غير حقيقية... كل ما نبتغيه هو أن يعرف كل فرد حدوده حتى تستقر أحوال السلطنة. ولذا سنقوم بإعطاء «**تعليمات شفوية بمنع الحضرات الصوفية حفاظا على هيبة المساجد بعد أن لوحظ في الفترة الأخيرة وجود دخلاء على حلقات الذكر**». وذلك حتى لا يقال إننا نفتري على أهل الذمة ونترك الحبل على الغارب لبني السلطنة من المسلمين.

- تفكير سديد وتخطيط محكم يا نائبي الغالي.

- وكل من يتجاوز تلك الحدود يا مولانا سنرسل عليه أتباعنا من قوات الأمن الذين يعرفون جيدا المطلوب منهم:

الأمن يواصل منع مرشحي الإخوان من التقدم بطلبات الترشيح لـ «الشورى».

7 مايو 2010

«مناوشات أمنية» في اليوم الأول لتقديم أوراق الترشيح في القاهرة الكبرى.

.. والإخوان يتهمون اللجان بإعاقة مرشحيهم.

4 نوفمبر 2010

- وسيتم «**القبض على رئيس لجنة رفض التزوير في العامرية**».. كما سيتم «**طرد رئيس لجنة البيطاش الإعدادية سيدات لرفضها المشاركة في التجاوزات الانتخابية**» و«**سيمنع بالقوة القاضي**

أيمن الورداني المشرف على الانتخابات بالعريش من دخوله اللجان التي سنغلقها في وجه الناخبين». ولكل من يرفض الانصياع فإن «البلطجية جاهزون .. والأجرة مدفوعة مقدما».

محصلة انتخابات البحيرة:

اختطاف وإطلاق نيران وسيوف وسنج وبطاقات تصويت في الشوارع

1 ديسمبر 2010

3380 حالة انتهاك وتعد وتحرش جنسي واستخدام سلاح في جولة الإعادة

8 ديسمبر 2010

- ولكل من يعتقد أنه أدهى منا وسيلجأ إلى منظمات للرقابة علينا فسوف ترفض «اللجنة العليا للانتخابات استخراج تصاريح مراقبة لنحو 4000 مراقب تابعين للمنظمات الحقوقية ..».

منظمة مدنية ترصد وصول سيارة ميكروباص بأوراق تتسلمها الشرطة و تدخل بها اللجنة.

تسويد 12 ألف بطاقة ونقل جماعي للناخبين.. وحصار مقر مرشح الإخوان في طلخا.

2 يونيو 2010

«العملية متستفة» و«اللجنة اتقفلت» و«الصناديق انضربت»..

3 يونيو 2010

قوائم سوداء للمتورطين في التزوير بالغربية ومتوفيان يصوتان لمرشح الوطني في بسيون.

2 يونيو 2010

- ثم يخرج القضاة الشرفاء على الناس بتصريحات تنفي شبهة أية تجاوزات فيبرئون بذلك ذمة النظام ويظهرونه وكأنه الحمل البريء.

اللجنة العليا تؤكد : كله تمام.

2 يونيو 2010

.. فإن ناخبا ساءه ما يحدث من تزوير وتقفيل وتسويد في إحدى اللجان، فسأل مسئولا عن اللجنة: «ماذا ستقول لربنا يوم القيامة؟».

فجاءت إجابته: «أنا بعد الانتخابات هروح أعمل عمرة وربنا هيغفرلي اللي عملته».

4 يونيو 2010

- ونستمر في بث رسائل تدعو الناس إلى اليأس والاقتناع بأن أي تَغيير يحلمون به بدون إذن من مولانا السلطان إنما هو مضيعة للوقت:

عثمان محمد عثمان: «الشباب الآن أفضل حالا واللي مش شاعر بكده عنه ما شعر».

28 يونيو 2010

معركة حامية الوطيس بين الكنيسة والقضاء.. والدولة تتفرج.. موقعة أخرى أعنف بين المحامين من جانب والقضاء والنيابة العامة من جانب آخر.. والدولة أيضا في مقاعد المتفرجين.. معركة صغيرة أخرى على مقاعد مجلس الشورى تلقي الدولة فيها بكل ثقلها.. ماذا يحدث في مصر؟

11 يونيو 2010

..لا يذكر «أن أي إعلامي تعرض للظلم أو الغبن أو العقاب أو السجن أو الاعتقال في عهد الرئيس مبارك».. والمخجل أن يأتي هذا التصريح بعد أيام فقط من حكم صدر ضد الأستاذ مجدي أحمد حسين بالسجن لمدة عام وغرامة 15 ألف جنيه في قضية نشر مضى عليها 14 عاما، في حين أنه محبوس بالفعل بحكم صدر عليه بالسجن سنتين بتهمة في قضية أخرى هي التسلل إلى غزة

المحاصرة (في نفس الوقت أفرجت مصر عن صحفي إسرائيلي بعد أن تسلل إليها في مارس الماضي بأيام).. وقبل أيام من كلام الأستاذ ومن كلام الوزير أيضا مثل رئيس تحرير «صوت الأمة» الأستاذ وائل الإبراشي أمام محكمة الجنايات بتهمة تحريض الجمهور على عصيان القوانين والامتناع عن سداد ضريبة السكن .. وقبل ذلك بشهرين اثنين كان حكم قد صدر ضد الكاتب الصحفي الأستاذ أحمد النجار بغرامة 20 ألف جنيه ودفع تعويض 10 آلاف جنيه.. بل إن «ألف صحفي استدعوا إلى النيابة ، مثل نصفهم على الأقل أمام المحاكم في عام واحد»، على نحو ما ذكر الأستاذ عادل حمودة مؤخرا .

26 يوليو 2010

أحزاب التحالف السبعة تؤكد مشاركتها في الانتخابات حتى لو لم تتوافر ضمانات.

17 أغسطس 2010

انتخابات بلا رقابة من الخارج ، وبدون تغطية تلفزيونية مباشرة - إلا عبر القنوات الحكومية - وبلا إشراف قضائي، وأخيرا :غير مسموح بدخول التليفون المحمول للجان.

18 أكتوبر 2010

إذا كنا قد فهمنا وأيدنا الرفض المصري للرقابة الدولية على الانتخابات، فإن ما يحيرنا حقا هو ذلك الإصرار على رفض الرقابة المحلية أيضا..

18 نوفمبر 2010

- ونكبل حرية الناس حتى في الانزواء ليعلموا أنهم مراقبون وأننا نرصد كل صغيرة وكبيرة... فكما تعلم يا مولانا فإننا رصدنا **«تكرار محاولات الانتحار من أعلى كوبري قصر النيل تقرر زيادة عدد أفراد الخدمات الأمنية المعينة أعلى الكوبري حتى يتم إحباط أي محاولات جديدة من قبل البائسين»**. ولقد أصدرنا أوامر بأن **«التعليمات الأمنية الجديدة شددت على عدم ترك أي شخص يقف بمفرده لفترة طويلة أعلى الكوبري، حيث رصدت التحريات أن كل من أقدموا على الانتحار من أعلى الكوبري حضروا إليه بمفردهم»**.

- فلن يكون للناس رفاهية القبول أو الرفض...

وقال أصحاب محال ومقاه إن أعضاء بالحزب الوطني مروا عليهم وأمروهم بتعليق صور وبوسترات لأمين السياسات بالحزب الوطني جاء فيها «باسم الشعب بإرادة شعبية جمال مبارك مرشحنا المقبل لرئاسة الجمهورية»..

وقال صاحب مقهى، رفض ذكر اسمه، إن الأمر مفروض عليه..

3 أغسطس 2010

رتب أحد المذيعين لقاء مع معارض أطلق سراحه بعد اتهامه بالعمل ضد مصر بالخارج. وقامت إدارة المحطة باستئذان جهاز أمن الدولة كالمعتاد. فوافق الضابط المختص مشترطا أن تتخلل البرنامج مداخلتان هاتفيتان من أحد الصحفيين وأحد الدعاة. وحين اتصل المذيع بالشيخ أبلغه الأخير بأنه تلقى اتصالا من أمن الدولة وسجل النقاط التي طلب منه التركيز عليها، كما قالوا له ادخل بآيتين من القرآن، ومعهما «شوية كلام من إياهم». وقد تحقق إبراهيم عيسى من ذلك حين تابع البرنامج، ووجد أن الشيخ نفذ التعليمات كاملة .

15 أغسطس 2010

- وليلجأ الناس إلى القضاء إذا أرادوا فسوف نشجعهم على ذلك ولا نمنعهم ولكننا سنزيدهم إحباطا:

3700 دعوة انتخابية أمام القضاء الإداري.. أصدر فيها ألف حكم وتم تنفيذ 15.

8 ديسمبر 2010

- وسيتحكم الأمن في دخول كل كبيرة وصغيرة إلى البلاد وبالتالي نحكم سيطرتنا تماما على مجريات الأمور.

كشفت ندوة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن حظر امتلاك الأفراد لأي نوع من التلسكوبات الفلكية لرصد الفضاء بأوامر من الأمن.

4 أكتوبر 2010

فضوها سيرة وتفضلوا مشكورين بإغلاق كل الصحف والقنوات الخاصة، بدلا من هذه التلاكيك المضحكة بدعوى التنظيم والترشيد.

في البداية حاصروا خدمة رسائل الأخبار القصيرة، ثم نحروا الدستور أو «انتحروها» ثم استداروا على الفضائيات بزعم تجفيف منابع الفتنة فأغلقوا وأنذروا على طريقة أخذ العاطل بالباطل. والآن جاءت الخطوة الأخطر وهي منع الفضائيات الخاصة من البث الحي المباشر للأحداث اليومية إلا عن طريق التلفزيون الحكومي، كل ذلك سبقه تمهيد التربة وتصوير الإعلام الخاص على أنه الشيطان الأكبر.

16 أكتوبر 2010

عندما يتم حسم معظم انتخابات الاتحادات الطلابية في الجامعات بالتزكية أو التعيين فعليك أن تتأكد أن الأمل في المستقبل شبه معدوم..

23 أكتوبر 2010

تزوير لصالح «الوطني» في دائرتي الساحل والمعهد الفني.

صحفية ادعت تأييدها لغالي وسوستة فسمح لها رئيس اللجنة بالتصويت رغم عدم قيدها بالجداول الانتخابية.

29 نوفمبر 2010

مظاريف الرشاوى «عيني عينك» لرؤساء اللجان.

29 نوفمبر 2010

«تصويت بالإنابة» في المنوفية وكفرالشيخ والشرقية وأسيوط.

بطاقات الاقتراع في شوارع القرى والمراكز.. واتهامات لضباط بـ «التسويد».

29 نوفمبر 2010

«الشروق» تحصل على مئات من بطاقات التصويت المسودة لصالح مرشحي الوطني بالفيوم.

30 نوفمبر 2010

- ثم ننهي المسألة يا مولانا لنقضي تماما على أي أمل كانوا قد حلموا به:

حمدي خليفة : مين اللي قال إن انتخابات الشعب مزورة؟

28 ديسمبر 2010

إذا تولى جمال مبارك الرئاسة بانتخابات تعددية وإشراف دولي فأين التوريث؟

15 أغسطس 2010

- هذه جرعة مكثفة من الإحباط والمآسي. ولكن ألا تخشى أن ينقلب السحر على الساحر؟

- مولانا السلطان، ثق أن العوام سينكسرون أعواما طوالا ولن يفيقوا من شدة ضرباتنا القوية والمتوالية.

هتاف الصامتين يزداد صخبا

3 أكتوبر 2010

* * *

هرول والي القاهرة صوب نائب السلطنة وكان يبدو عليه الاضطراب الشديد، قال وهو لاهث:

- تحملت الجارية التعذيب وقاومت كما لم نر من قبل. زرعنا الكابوس واستجابت له في بادئ الأمر مثلها في ذلك مثل كل الآخرين. ولكن مع الوقت انتابتها رعشة شديدة سيطرت على كل جسدها وبدأت تتحرك بشكل جنوني وكأنها تهرب من شخص يحاول خنقها. كانت مرتبكة، خائفة، وكان على وجهها إحساس بألم شديد. كانت تهرول كالمجنونة، تندفع ناحية

الجدار فترتطم به، ثم تستدير وتهرول صوب الجدار المقابل بنفس درجة الجنون، حاول الجنود إيقافها ولكنهم لم يوفقوا في ذلك. تفجرت الدماء من رأسها وغمرت ملابسها كلها ثم فجأة تجمدت في مكانها، برقت عيناها وكأنها رأت شيئا يمر أمامها، صرخت صرخة مدوية ثم سقطت جثة هامدة.

- لقد كان كابوسا قاسيا فعلا. تخلصوا من جثتها وأطلقوا سراح الثلاثة الآخرين فورا. أطلقوهم في الحارات، كل في مكان مختلف ودعوهم ينشرون الرعب والذعر في المدينة...

- أمرك مطاع يا مولانا.

* * *

مر كل شيء سريعا عليها، بطيئا على المسجونين الثلاثة. مرت الأسئلة برؤوسهم معذبة، ترى أين هي الآن؟ هل تجاوزت الممر؟ هل دخلت غرفة التعذيب؟ ماذا سيفعلون بها قبل أن يفتحوا رأسها؟ هل تموت أثناء التعذيب أم تتحمل وتصل إلى مرحلة زرع الكابوس؟ أي كابوس سيطلقونه في رأسها؟ وما التأثير الذي سيفعله هذا الكابوس بها؟

أسئلة كثيرة ولكنها كلها بلا أجوبة. كل سؤال يجر خلفه عشرات أخر ويطلق العنان لأجوبة غير شافية ولا تبعث الطمأنينة بأي شكل من الأشكال. حتى جاءت الصرخة... صرخة مدوية قطعت

الصمت فدب الرعب في قلوبهم. صرخة قطعت حبل الأفكار المعذَّب برد واحد لا يحتمل الشك. صرخة عقبها هدوء أشد ألما وفجيعة من وقع الصرخة نفسها. كان السكون الذي ساد هو أوجز رد على كل التساؤلات والنهاية الوحيدة لكل شيء. صرخة تبعها سكون، تبعها تأكيد...

مرت لحظات وفُتِحَ الباب الحديدي من جديد وقبل أن يستطيعوا أن يسألوا سؤالا واحدا، كان يُلقَى على رؤوسهم خرقة سوداء تحجب عنهم الرؤية، يكبلون الأيدي ويساقون كما تساق البهائم إلى خارج الغرفة.. إلا أن هذه المرة لم يغلق الباب الحديدي خلفهم....

وضعوا في العربة التي انطلقت بهم بسرعة البرق... مر زمن طويل، توقفت بعده العربة، حلوا وثاق جابر وألقوا به في منتصف الطريق واستمروا في رحلتهم. توقفوا ثانية بعد قليل ثم فعلوا الأمر نفسه مع زكية. انطلقوا وبعد فترة قصيرة توقفوا وفعلوا الأمر نفسه مع أحمد. تركوهم كل في خط أو حارة أو عطفة. تركوهم في ظلام الليل الدامس وذهبوا من حيث جاءوا.

* * *

الخوف

نشر الشائعات

- و هنا يا مولاي نبدأ مرحلة تكسير العظام.
- و ما هي يا نائبي العبقري؟
- ينتشر بصاصونا في المدينة متنكرين في هيئات شتى ويبدءون في نشر شائعات عما لاقوه من التعذيب بسبب أحلامهم.
- فلتبدأ التنفيذ إذًا.

لم تمضِ سوى ساعات قليلة حتى مُلِئَت الأزقة والحواري والعطفات بالمجاذيب والدراويش والأسرى المحررين، لا يعلم أحد على وجه التحديد متى ظهروا ولا من أين جاءوا، ولكن الناس لم تعر الأمر انتباها خاصا حيث إن الظروف التي تمر بها البلاد تقود حتما إلى الجنون وفقدان العقل. في ظل الغلاء الطاحن والتشاحن بين المماليك وسيطرة كبار التجار على الأسواق ونقص الماء نتيجة لانحسار الفيضان، من ذا الذي كان سيهتم بحفنة من المجاذيب؟

لم يكن هناك قاسم مشترك بينهم، أو على الأقل بصفة بادية، ولكنهم كسائر المجاذيب يلبسون الخرق، يتكئون على عصي في مشيهم، مكشوفي الرأس، رائحتهم نتنة حيث إنهم لم يلامس الماء جسدهم لشهور طوال ولا حتى عن طريق الخطأ. وكان لكل واحد منهم لمسته الخاصة، كان منهم من يلف حول معصمه مسبحة ذات خرزات كبار، ومن كان يلف رأسه بعمامة متهتكة خضراء اللون، ومن كان مكشوف العورة يبرز منه عضو تناسلي ضخم، منفر... ومن كان الرغاء يخرج من فمه بشكل مقزز يجعل المارة يبتعدون عن طريقه وينظرون إليه على أنه كلب مسعور سيصيبهم بمرض إن اقترب منهم.

- حي... حي...

يقولها المجذوب منهم بصوت مزلزل قوي، ترتعد الأرض من هوله.

- فليغفر الله لكل مفترٍ وظالم.

حي...

الشاعر

بعد عناء يوم شاق وطويل، تحلق جمع من الرجال حول حانوت القهوة في سوق قبو الخرشتف. ساد المكان غيمة غريبة تتخللها رائحة القهوة والجنزبيل واختلطت به رائحة الزلابية المقلاة في مكان ليس ببعيد عن مجلس الرجال.

في ركن مظلم من الحانوت تجمع الرجال حول راوي السيرة، شاعر أشيب الشعر، مهندم الملبس، يضع عمة مشايخ على رأسه مما منحه جلالا واحتراما زائدين. جلس الشيخ على دكة مرتفعة تعلوها بسط ووسائد يرتكز عليها ويرتشف قهوته من فنجان صغير ناصع البياض. بجانب الدكة، منضدة صغيرة ومرتفعة تصل إلى مستوى ينخفض قليلا عن مستوى مجلس الشاعرليضع عليه فنجانه ويتناول الماء في أثناء إلقائه الشعر.

تحلق الناس من حوله معلقين أعينهم على فنجان القهوة، يتابعون صعوده إلى فم الشاعر ومشوار هبوطه إلى مستوى بطنه.

يتأملون تعبيرات وجهه، منتظرين أن يهز رأسه هزتين خفيفتين ثم استعداله للعمة والشد على جلبابه الأبيض بيديه ليسترد أبهته ووقاره. يعلمون جيدا أن هذه التوليفة من الحركات هي بمثابة الإعلان عن بدء الحكي، عن استهلاله بنحنحة متأنية كأنه يختبر قدرة أحباله الصوتية على تحمل صيحة البداية، أول بيت الذي هو تحذير لمرتادي المقهى أن العرض قد بدأ. كانوا في انتظار هذا التسلسل من الإشارات، ولكن أيا منها لاح في الأفق. زاد الترقب وطال الانتظار والشاعر على حاله، يحتسي قهوته، يرتشفها باستمتاع بالغ. كان مغمض العينين أثناء ارتشافه وكان يفتح عينيه على مهل شديد تحققا من حقيقة الطعم، كان ينظر إلى الفنجان باستغراب وكأنه يسأله هل فعلا ما تحمله في جوفك من طعم الجنة حقيقي؟ وما أن انتهى من قهوته استفاق إذ فجأة وكأنه كان في حلم استيقظ منه. جمدت عيناه وثبت نظره على نقطة ما، على شيء ما لم يكن يراه شخص غيره. وهجت عيناه فجأة وأَلِقَت ولم تلبث ثواني حتى دمعت. تعجب الجلوس، ما الذي أصاب هذا الشاعر الدائم البهجة، ذو الصوت الرخيم القوي الذي يرضخ له رواد الحانوت ويلينون له؟ كيف تحول هذا الرجل الشامخ الذي يفرض حضوره على الجالسين إلى كهل واهن يبكي كما النسوان. بدأ البكاء خفيفا كقطرات الندى على خدود الورود في فجر يوم جديد، ولم تلبث أن صارت سيلا كهطول مطر من سحب سوداء غاضبة تلقي بها الريح

على سفوح الجبال والقمم الشامخة. كان يبكي بدون صوت، وكان الناس في حيرة من أمره ومن أمرهم. ما الذي يبكيه؟ ما الذي جد؟ وماذا يفعلون؟ هل يبقون في أماكنهم إلى أن تهدأ الريح؟ هل يواسونه ويستفسرون منه عما أصابه؟ بلغت الحيرة حدتها حتى جاء الرد من الشاعر نفسه. كان ردا غير متوقع وأخرجهم من حيرة وأدخلهم دوامة من التساؤلات والاضطرابات.

بدأ الشيخ في العويل والبرطمة بكلمات غير مفهومة في بادئ الأمر، ثم بدأت الكلمات تخرج من فمه أكثر وضوحا واتساقا..

-آه لو تعلمون ماذا جرى لي... آتي إليكم كل ليلة بكتابي هذا مطويا تحت إبطي محملا بقصص الشجاعة والمغامرة، وقصص الأبطال والفرسان، قصص تقضي على الظلم وتنشر العدل، وحكايات تقوي من عزم الناس في وقت الشدائد ...حكايات مفعمة بالأمل والحياة والصبر والجلد، حكايات تنتهي دائما بفوز المقهور المظلوم ويموت فيها الظَّلَمة الكفرة. حكايات هي ملاذ الغلبان والحالم والعاجز، المظلوم والمقهور والمذلول ... روايات الفرسان الشجعان الذين يهبون في نصرة الحق ويقفون في وجه كل ظالم مستبد. لكن القصص مُلَغّزة، مُطلسمة، لا يفك شفرتها الحقيقية إلا من اجتهد وبحث عن المعاني المستترة بين السطور، بين أزمة البطل وانتصاره للحق، إلا من غاص في صدر الفارس الهمام وبحث في ثنايا قلبه وفتش عن نواياه وعن

مشكلاته، وفهم فيم يفكر وهو يناصر المحتاجين المعوزين. ما أسهل أن تجلسوا مجلسكم هذا وتستمعوا لربابتي يهتز وترها اليتيم وتصدح بالألحان الرتيبة المصاحبة لروايتي التي تأخذكم من مكان إلى آخر ومن حدث إلى حدث، من بطء إلى سرعة ومن هزيمة إلى انتصار. ما أسهل أن تستمتعوا بهذه التباينات في الأحداث وألا ترهقوا أنفسكم في تفسير المعاني والبحث عما يخفيه البحر تحت سطحه المائج، البحث عن الدرر المخبأة في الأصداف، تكتفون بالنظر من الخارج، تخشون المغامرة في الأعماق، تهابون فتح الصدَفة خوفا من وجود كائن بحري مختبئا بداخله وذعرا من انقضاضه عليكم، فتلجأون لما اعتدتموه وألفمتوه. لا تغامرون بين السطور، لا تأخذون الوقت لاستخلاص العبر والتفكر.

الخلاصة، هذه البطولات تغذيكم أملا وجلدا وأنتم لا تدرون. هذه القصص والحكايات هي الحلم الذي نعيش به فيكبر بداخلنا ويملأ حياتنا بالرغبة في الحياة والمقاومة، عدم الاستسلام للانهزام وللقهر. الأحلام هي الحياة، هي حياتنا الموازية، المستترة التي ننمو بها وتنمو هي بنا. الأحلام هي خلاصنا.

بدأ الشاعر ينفعل ويُعلي صوته بحرقة وشجن، وبدأت الدموع تنهمر مبللة لحيته الطويلة الناصعة البياض.

-غذيتكم أملًا وأرضعتكم حلمًا وعشت بهما. كان هذا الكتاب المصفرة أوراقه هو الغاية والوسيلة، كان البداية والنهاية في الوقت ذاته. عشت من أجل أن أرى بريق هذا الأمل في عيونكم. لم أكن آتي إلى هنا لأقص مغامرات لأُرفِّه عنكم ولكن كنت آتي لأزرع فيكم بذورًا تستقر في قلوبكم وعقولكم لتنموا رويدًا رويدًا وتثمر حينما تصبحون من النضج ما يكفي لاستيعابكم المسئولية والعواقب...

بيت القصيد وحتى لا أطيل عليكم، كنت عائدا إلى بيتي ليلة أمس وإذا بنفر من الرجال الملثمين يهاجمونني من الخلف، يغطون رأسي بغطاء أسود يحجب عني الرؤية ويكممون فمي ويلقون بي في عربة ورمح الخيل وكأنه كان في انتظار رميي في العربة. انطلقت العربة بسرعة السهم وأحسست بأقدام الرجال على جسدي ثبتتني إلى قاع العربة، طال الطريق وزاد الألم من شدة الارتطام وضغط الأرجل على جسدي. بعد مشوار أحسست أنه لا ينتهي، توقفت العربة وبدأت أسمع صوت حركة تدب من حولي، قفزات خفيفة وصوت ارتطام الخفاف المكتوم على أرض خمنت أنها ترابية. لم تستمر تخميناتي كثيرا فقد شدوني من ذراعي إلى الأرض وبدءوا في سحلي لمسافة ليست بالقصيرة. جرجروني، توقفنا هنيهة سمعت بعدها صوت باب حديدي يفتح، استمروا في جرجرتي إلى داخل

مكان رطب، يعلو فيه صدى الصوت فاستنتجت أن المكان مفرغ من كل أثاث أو محتوى وأنه في الغالب مخزن مهجور أو سجن قديم.

ألقوني بقوة على الأرض الجامدة، التقطت نفسي هنيهة بسيطة ولم أكد أنتهي من آخر نفس حتى وجدت الركلات واللكمات تنهال عليَّ من كل صوب وحدب، أحسست بدماء ساخنة تنهال من أنفي، وآلام شديدة في ضلوعي ورأسي، بدأت أدوات حديدية تنهال على أجزاء جسدي المختلفة وصار الألم لا يحتمل. لم أكن أعرف كيف أهرب من هذا الضرب المبرح ولم أدرِ بالطبع لمَ صار كل هذا ...

توقف الضرب وكنت قد افترشت الأرض تماما، مستسلما لما يفعلونه بي، كانت ملابسي قد تمزقت في أكثر من موضع وقد خبرت ذلك من إحساسي ببرودة الأرض في أكثر من مكان في جسدي. ساد المكان صمت مريب وبدأت خطوات بطيئة ولكن واثقة تقترب مني، اقترب الصوت أكثر فأكثر حتى توقف على مسافة غير بعيدة عن رأسي، ثم تكلم ...

- إلى متى ستستمر في نشر الأكاذيب للناس؟

لم يكن بوسعي التفوه ببنت شَفة من فرط الألم الذي أصابني في كل عظمة من جسدي، كان الألم لا يحتمل لدرجة فقد إحساسي بكل شيء.

- ألا تعرف أن رواياتك تعكر صفو السلطنة وتؤجج الرعية ضد الحاكم العادل؟

هل تعرف ما الذي يصيب من يتسبب في غضب مولانا السلطان؟

استمر عجزي عن النطق أو حتى الحركة، ولكن الصوت لم يتوقف وقال:

- أذيقوه بعضا من عقابنا.

لم ينتهِ من كلمته الأخيرة حتى وجدت نفسي مجرورا على الأرض مرة أخرى، ثم رفعوني من تحت إبطي وبدءوا في ربط يدي ورجلي إلى ما هو أشبه بسيخ حديدي أطول مني قليلا، ثم رفعوني وأنا مقيد في السيخ. بدأت سخونة غريبة تنتقل إليَّ ولم أكن أعرف مصدرها وكلما تقدمنا زادت الحرارة اقترابا، ففهمت واستوعبت ما أنا مقبل عليه. بدأت في العويل والصراخ:

- لا... لا... النار لا.... النار لا.

و بدأت أسمع ضحكا مجنونا يأتيني من بعيد وصوته يقول لي:

- كل من يؤجج الناس ضد أولي أمره يكون مصيره سلخ جلده، ولكن اطمئن سنسقي جلدك زيتا وسنقوم بشيِّك على نار هادئة وببطء شديد جدا حتى تحس بجلدك وهو مهلهل تماما يكاد يتساقط عنك، ثم نبدأ في سلخه عن جسدك قطعة قطعة. سنبدأ

بالساقين، ثم الذراعين، ثم أجزاء من رأسك وإن كنت لا أعتقد أنك ستصمد للرأس.

- عفوك يا سيدنا، عفوك.

لم أعرف من أين أتى الصوت ومن أي بعد جاء ولا مصدر القوة التي تفوهت بها، لا شك أنها قوة الفطرة التي ولدنا عليها، قوة الرغبة في الحياة ...

سامحني ولكني لا أعرف لماذا تفعلون بي كل ذلك ...

- هل فعلا لا تعرف؟

- صدقني أنا لا أعلم شيئا ولكني سأفعل كل ما تأمر به يا سيدنا.

- نحن لم نبدأ التعذيب بعد وها أنت تستسلم بسرعة، أي متعة تمنحنا الآن؟ ولكن أعتقد أنه من الإنصاف أن تعرف لماذا أنت هنا ...لذا سأخبرك.

أنت هنا لأنك تخطط لفتنة ضد مولانا السلطان. تؤلب الناس على معصية ولي الأمر والمواجهة المسلحة ضده. أنت تغذي الناس كرها وتؤجج المشاعر ضد واقعهم وتقنعهم أن حياةً أفضل تنتظرهم، أنت تزرع في رؤوسهم أحلاما من خلال سيرك وحواديتك التافهة ...

- أنا أفعل كل ذلك؟

- لا تدعي الضعف وقلة الحيلة... لقد رصدناك في حانوت القهوة ورأينا تأثيرك على الناس وما تحمله حواديتك من كلمات مشفرة وملغزة... نحن نعرف كل ما كان يدور بخلدك.. أنت العقل المدبر لكل ما يحدث من انعدام للاستقرار في نواحي البلاد.

- ولكني لم أفعل شيئا سوى الحكي والغناء على الربابة، كيف يكون هذا العمل مؤذيا.

- لا تدعي الغباء.

- أنا لا أدعي شيئا، كل ما أريده منك أن تعتقني لوجه الله، أنا رجل لا أملك شيئا في هذه الدنيا إلا حكاياتي وربابتي.

- هل تريد فعلا أن أعتقك؟

- ...

- لا مانع عندي ولكن عندي شرط.

- و أنا تحت أمرك.

اقترب مني الرجل ووشوش كلمات في أذني ...

وبنفس الطريقة التي أخذوني بها، أعادوني إلى مكان ناءٍ في المدينة التي بدأت تباشير الصباح تلوح فيها وتلمح ببداية يوم جديد.

أعادوني إلى الحياة ولكنهم أماتوني ميتة أكثر ألما وأشد شرا.

لقد أخطأت في حقكم حين رغبت أن أمنحكم أحلاما تعيشون بها ولها، الأحلام ما هي إلا تهلكة لنا جميعا. الأحلام شر يحدق بنا، يعمل الخيالات في رؤوسنا ويهيئ لنا ما لا أساس له. الأحلام تلعب بعقولنا، إنها شر مطلق، كذلك تلك الحكايات التي أحكيها لكم.

بدأ الراوي ينتحب بشدة ووجد صعوبة بالغة في التقاط أنفاسه واستكمال جمله. سارت همهمة في الحضور وبدأت علامات الحيرة تظهر على وجوههم وفجأة قام الشاعر من مجلسه في حركة صاخبة وألقى بكتابه الذي لم يفارقه قط وكان صوت السقوط مدويا فانتفض الجلوس من فرط الصدمة، تساقطت الفناجين وتهاوت المناضد الصغيرة التي تستند عليها...

و لكن لم تنته مفاجآت الشاعر عند هذا الحد..

كانت حركته الأخيرة هي التي أنهت كل شيء ...رفع الحكواتي ساقه اليسرى ووضعها على مقعد ثم لم يلبث أن رفع جلبابه وسرواله من تحته كاشفا عن ساقه ...

وساد صمت الموت في الدكان، خرج على إثره الشاعر صارخا كالمجنون :

- الأحلام فيها دمار بني الإنسان... الأحلام تهلكة... الأحلام تهلكة.

إياكم والحلم :.. إياكم والحلم...

خرج من حانوت القهوة وهو يحدث نفسه كما المجاذيب ويخبط بكفيه وهو سائر. تباعد صوته والأنظار ما زالت متعلقة به في تعجب ودهشة. لحظات وبدأت الهمهمات تسري بين رواد حانوت القهوة ثم دارت الأحاديث فيما بينهم وسمعت الأسئلة :

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما الذي أصاب الناس؟

- أصبحت الأحلام تُذهِب عقولهم...

- بعد أن كان الجميع شديد التفاؤل وسعيدًا بما تحمله الأحلام من بشائر، أصبح الناس يتوجسون من الأحلام ويهابونها.

- ما الذي جرى تحديدا؟

- كيف تبدل الحال بهذا الشكل؟

- ومن أين جاءنا كل هؤلاء الذين يُرهِّبون الناس من الأحلام؟

- شيء ما يحدث يخيف الناس، لكن ما هو تحديدا؟

- لقد جن الناس، هذا هو ما حدث...

- ولكن الآثار على ساق الشاعر؟ ترى هل هي أثار تعذيب تعرض له؟

- ولماذا يُعذَّب؟

- ألم تسمع الرجل؟ ألم يقل إنه خُطِف وكان سيتم سلخ جلده لأنه يحكي عن بطولات ضد الظالمين والطغاة تنتهي دائما بانتصار المظلومين والقضاء على المجرمين؟ أفتتعجب من تعذيب الوالي أو متولي الحسبة له؟

- و هل تعتقد أن الأمر سينتهي بالشاعرفقط؟

- و ماذا تظنون أنتم؟ كلنا مصريون وكلنا نعلم كيف تدار الأمور في هذه البلاد...هل تعتقدون فعلا أن الأمر سيتوقف عند هذا الحد؟

درويش

مشى في ملابسه الصوفية المهترئة حاملا مسبحته الكبيرة ومعتمرا عمامته الخضراء التي تلف رأسه. كان مشهدا مألوفا في مدينة فيها من الخانقاوات عدد لا يحصى. لم يكن المنظر ملفتا للنظر بطبيعة الحال، إلا أن هذا الدرويش لم يكن كسائر الدراويش. كانت هيئته فيها شيء مريب، شيء مختلف... كان شعره الأشعث ولمعة عينيه التي تخفي سرا ما، نظرته التي تراقب وتتابع المارة عكس نظرات المتصوفين الزائغة التي ترى ما لا يراه الناس وتحسبها تنظر إلى أشياء في بعد مختلف وفي عالم غير العالم...

كانت خطواته متعجلة ومتعثرة، كأنه في عجلة من أمره في حين الدراويش يمشون كأنهم يحلقون فوق الأرض، يتحركون بتؤدة وثقة كأنما نسمة هواء خفيفة ولطيفة تحملهم وتدفعهم إلى الأمام، كأنهم مراكب تتهادى فوق سطح النيل تداعبها نسمات الربيع العذبة.

كان مظهره اعتياديا ولكن سلوكه وحركته كانا غير مألوفين بالمرة مما جعل التجار وأصحاب الكراسي والباعة الجائلين من العارفين بمرتادي الخط يمعنون النظر ويتوقعون حدوث أمر جلل.

و كان أن بدأ بالصراخ:

- حي...حي...

كله بمشيئة الله...

حي...

يُسَيِّرُ الخلق بأمره ويمهد الأرض لعبادته...

ملعون كل من يخالف أمر ربه...

ملعون في الدنيا والآخرة...

له عذاب النار وهو فيها فان...

حي...

يا أحباب الله ...

يا أحباب رسول الله ...

اسمعوني واتعظوا مني...

فكم من طيف يجيئنا...

يداعب خيالنا...

ونحسبه يعدنا بخير وهو في واقع الأمر شر...

يا عباد الرحمن...

إنما الأطياف من عمل الشياطين...

تهبط علينا وتتجمل...

تتزين وتتمايل أمام ناظرينا...

تغرينا فنضعف...

نضعف لأننا ضعاف الإيمان والقلب...

لأننا تخلينا عن طاعة الله ومن ولاه علينا في الأرض...

فصرنا عاصين...

مبتعدين عن كتابه وتعاليمه...

لا تصدقوا الخيالات...

فما هي إلا من صنع الشيطان...

يوحي لكم بخير...

ولكنه يريد بكم شرا...

وكم من عبد اتبع طيفا...

فأصبح من الضالين ...

وعذب في الدنيا وفي الآخرة ...

وجعل الله لكم من الأسبقين مثلا ...

حي... حي...

ابتعد الدرويش بنظراته الزائغة، الباحثة. ابتعد وعيون المارة والتجار، النساء والأطفال تتابعه بتعجب واندهاش.

مجاذيب جدد

بعد التعذيب وزرع الكوابيس، كان المصير المنتظر واحدا لكل من جابر وأحمد وزكية: حالة أقرب إلى الإنجذاب، المشي في الطرقات والأسواق بلا هدى، نظرات زائغة، تصول وتجول في الناس بشيء من الحيطة والريبة، توجس وخوف.

كان مظهرهم يرثى له، شعر كث، ملابس رثة، رائحة نفّاذة، ملابس أشبه بالرقع القذرة وكأنها لم تعرف للماء والصابون سبيلا من قبل.

و كانت بهم جميعا علامة واحدة مميزة: ندبة في مؤخرة الرأس تلخص كل ما مروا به، كل ما عانوا منه، كل ما مروا به من ظلم وقهر. بعد زرع الكوابيس في رؤوسهم، تم إلقاؤهم إلى حارات وخطوط القاهرة، تركوا ليلقوا مصيرهم الجديد وليبثوا الرعب في القلوب. الرعب من الحلم والأمل، الرعب من التطلع إلى غد أحسن، يرفض الظلم ويحتضن العدل، الحياة الكريمة، الكرامة الإنسانية ...

جالوا في طرقات المحروسة وتعلقت بهم الأنظار اشمئزازا ونفورا من أشكالهم المتشردة، المتعفنة...

-يا من تهربون من واقعكم وتلجأون إلى الحلم...

يا من تفرون من ظلم الدنيا إلى عدل الوهم...

يا من تعقدون الأمل على غد أفضل...

لا تتبعوا السراب...

الأحلام ممنوعة علينا نحن المساكين...

لا يحق لنا أن نأمل...

لا يحق لنا أن نحلم...

حتى يعيش كل من في يده السلطة...

كل من ولي علينا...

هم فقط لهم الحق في الحياة...

هم فقط يلبسون ويأكلون ويشربون ويجنون المال...

أما نحن فنسف تراب هذه الأرض الكريمة...

ونلحس ما علق من مياه الأمطار على الأرض...

ونفتش عن كسرة خبز أو بقايا طعام سقطت سهوا من هؤلاء السادة...

السادة الكفرة، السادة الظلمة...

يتمتعون بأحسن الخمور وأجمل النساء...

بأنعم البسط وأرقى الملابس...

ونحن نلبس الجوخ ونتعل القماش...

حتى حشيشة الفقراء يمنعونها عنا...

- لا حول ولا قوة إلا بالله أليس هذا أحمد السقاء؟

- بلى ولكن تغير شكله كثيرا...

- ما الذي أصابه؟ شتان بين ما يقوله الآن وحاله عندما كان يقص على الشيخ مهدي حلمه.

- لقد بدأ كلامه يخيفني.

- لماذا؟

- ألا ترى مظهره؟ لا بد أنه تم تعذيبه كثيرا... ألا تعتقد أنهم سيلاحقون كل من يحلم؟

- ما الذي يجعلك تقول ذلك؟

- لا أعرف ولكنه إحساس دفين...

- لا تبالغ ودع الناس تحلم...

* * *

- يا من تهربون من الواقع إلى الخيال...

يا من تعتقدون أنكم في الحلم تجدون ملاذا آمنا...

يا من تعانون في الأرض صباحا ومساءً...

يا من ترون في الحلم براقا يطير بكم إلى سماوات بعاد...

يبعدكم عن ظلم الأرض وعذابه...

اعلموا أن الأحلام وهم...

ولكل وهم ثمن...

وأن الثمن غالٍ...

قد لا يطيقه البعض...

احلم إن شئت...

ولكن اعلم أن لكل حلم ضريبة...

حتى الحلم فرضوا عليه المغارم...

- يا الله، ماذا أصاب زكية البلانة؟

- أهذه هي حقا؟ كأنها شاخت أربعين عاما...

- ما الذي جرى لها يا ترى؟

- ألا تعلم أنها اختفت عدة أيام؟

- تغيبت عن عملها وبحثوا عنها في كل مكان ولم يعثروا لها على أثر.

- وأين كانت؟

- لا أحد يعلم...

- اختطاف؟

- ربما، فلم أسمع من قبل عن أناس يختفون ثم يعودون...

- هل سمعت ما قالته عن الأحلام؟

- نعم، سمعت... ولكن عن أي ضريبة تتحدث؟

- واللهِ ما أدري... لم أسمع عن مغارم فرضت على الأحلام.

- لا أعتقد أن هذا هو المقصود... لعل في الأمر رسالة متوارية ...

- لكن ماذا تكون الرسالة؟

* * *

- يا من ترى في الحلم خلاصك...

يا من تعاني من ظلم هذه الدنيا...

ويطاردك الظالمون فيها...

يخطفون منك قوت يومك...

ويحيلون حياتك إلى ممات...

ممات وأنت حي، تمشي على الأرض...

اعلم أن حتى حلمك يسرقونه منك...

واعلم أن لا مناص إلا المواجهة...

لن يدعونا نعيش أو نحلم...

لن يهنأوا إلا بانبطاحكم...

لن يهنأوا إلا بخضوعكم وانكساركم...

إلا بعد أن تصبحوا أمواتا بين الأحياء...

مسيّرون في كل أموركم...

حتى تصبحوا كدمى خيال الظل...

يحركها المخايلي[1]...

فتظهر للناس أطيافها...

ويبقى المخايلي غير مرئي...

مجهولا...

حتى أحلامكم يريدون تحريكها في الظلام...

يُبدون منها طيفها...

(1) المخايلي: محرك الدمى في مسرح خيال الظل.

ويختبئون هم خلفها...

يا من تحلمون بغد أفضل...

يريدون تحطيمنا...

والإجهاز على أحلامنا...

ولكننا نقول لكم...

هلم لهم بالمرصاد...

دافعوا عن أحلامكم...

لا تتنازلوا عنها...

لا تدعوهم يسلبونها منكم...

الأحلام هي كل ما تبقى لنا...

لا تستسلموا...

قاتلوا من أجلها...

من أجل حياتكم...

- أبعد خطفه وكل هذا التعذيب ما زال جابر قادرا على الصمود والمقاومة؟

- هذا هو ما عهدناه منه... ثابت على مبدئه مهما حصل.

- هكذا يكون الرجال.

* * *

المجاذيب

- من أين يأتونا هؤلاء المجاذيب؟ ألم تلاحظ أن عددهم في تزايد مطرد؟

- والله يا بني لا علم لي... فهذه الوجوه غير مألوفة لي ولا علم لي من أي مصيبة ينزلون علينا.

- قلبي ينبئني أن في هذا الأمر سرا عظيما..

- العلم عند الله يا ولدي، ولكني أشتم مثلك رائحة غدر ودسيسة

- أتعلم أكثر ما يحيرني؟

- لا. ما هو؟

- إنه هذا التزامن الغريب لظهور هؤلاء الغرباء مع انتشار هذه الأحلام. ألا ترى في الأمر ما هو مريب؟

- لعلك محق في هذا الشأن. وبما أنك ذكرت ذلك ألا تجد أنه من الغريب أن يكونوا جميعا يتحدثون عن شر أصابهم من جراء الأحلام؟

- بلى.. وكأن في الأمر رسالة مستترة. ولكن ما هي؟ ومن الذي وراءها؟

- ولكن هل تعتقد أنهم جميعا يفتعلون الأمر؟ وأنهم ليسوا مجذوبين؟

- إنه شيء يصعب تصديقه طبعا.

- فماذا إذًا يا بني؟

- والله لا أعلم ولا أستطيع أن أجزم بأي شيء، لكن هذه الحياة علمتني أن أحتاط وألا أصدق إلا نصف ما أرى.

- لعلك محق في هذا يا ولدي. بل وأرى أنه في هذا الزمن الغادر يجب توخي الحذر وعدم البوح بأي شيء لأي شخص مجهول وعدم النطق ببنت شفة أمامهم، زيادة في الحيطة.

- أتفق معك في هذا الشأن.

- و لكن ماذا عن جابر وأحمد وزكية؟ هل أصابتهم لوثة؟

- يشيع الناس أنهم قد خطفوا وعذبوا من جراء الأحلام التي حلموا بها...

- وأنا لا أستبعد ذلك البتة... فلقد كان جابر دوما عاقلا، متماسكا.

نعم كان كثير التذمر مؤخرا، ولكن من منا لم يكن؟

- حتى السقاء، كان شخصا ودودا يحبه الناس، جادا في عمله.

- كذلك زكية... لا تتغيب عن عملها، دؤوبة فيه.

- والآن أصبحوا مجاذيب يسيرون في الأزقة والأسواق يبثون في الناس رعبا من أن يحلموا.

- أنت محق، فهيئتهم والكلام الذي يرددونه عن الأحلام مخيف...

- لا أخفي عنك أنني جاءتني رؤية ولكني أخاف أن أحكيها لأي كان حتى لا يصيبني ما أصابهم...

- يا منجي العباد من العذاب ...كيف أوصلونا إلى هذا الحد؟



ما بعد الخوف

نهاية حتمية

كان الصراخ في الأسواق والحارات والطرقات يغطي على كل شيء. لم يعِ أحد كيف بدأ الأمر ولكن النتيجة كانت واضحة جلية للجميع. كانوا قد اعتادوا مثل هذا السلوك وحدوثه من حين لآخر لم يكن أمرًا مستغربًا، سرقة ونهب وخطف النساء والبنات في بعض الأحيان حتى... نعم، كان هذا يحدث ولكن هذه المرة كان كل شيء مختلفًا. كانت الهجمة مباغتة، عنيفة، قوامها كبير على غير العادة. لم يتوقف الهجوم على الحوانيت وسلب البضائع فقط، ولكنه امتد هذه المرة إلى الحمامات وحوانيت القهوة والجنزبيل والأسواق الأصغر حجمًا وبيوت كبار التجار المنزوية والقيساريات والربوع وسرقة حلي النساء السائرات في الطرقات والحواري وامتد الأمر إلى خطف البنات.

ولكن هذا كان ما قام به الجلبان وصغار الأمراء من المماليك وأتباعهم...

أما ما قام به العوام فهو ضرب من الخيال...

ما أن بدأ الهجوم حتى ذاع الأمر وعلى غير المتوقع خرج التجار صغارهم وكبارهم بعصيهم وسلاحهم وتصدوا للمهاجمين. اعتلى الصبية أسطح الحوانيت والمنشآت وقذفوهم بالطوب وكل ما طالته أيديهم من مقذوفات. قفز من قفز على الفرسان وأسقطوهم من على جيادهم وانهالوا عليهم ضربًا بالمداسات والخفاف. وتطور الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، فما أن اقتحموا الحارات حتى أغلق العوام الأبواب عليهم وحاصروهم في الطرقات الضيقة ونصبوا لهم شركًا ولم يكتفوا فقط بضربهم ولكن وصل الأمر إلى خطفهم واحتجازهم في مخابئ تحت الأرض.

كان الناس قد فاض بهم الكيل، فكل ما حولهم شقاء وعناء، غلاء ومرض، إهانات مستمرة في شتى مجالات الحياة، منع وحظر، مظالم ومغارم، كل متسلط يُملي رغباته على شكل أوامر من يعصاها يُجَرَّس أو يُوَسَّط أو يُسَمَّر... ولا يتوقف هذا العذاب عند هذا الحد بل يهاجمهم الجلبان والأمراء الصغار من المماليك، يستولون على تجارتهم ويستحلون نساءهم ويخطفون بناتهم ...

اشتعلت النيران في البيوت وكسرت الحوانيت بما فيها وعمت الفوضى المكان وكأنه آل إلى ساحة حرب.

ماذا تبقى لهم؟

لقد فاض بهم الكيل ولم يعودوا يتحملون هذه المشقة، لم يعد صبر أو منطق ينفع لكبح غضبهم والسيطرة عليه. لقد قاموا بما يقوم به المصريون في أحسن صوره: الصبر على البلاء والتحمل المرة تلو الأخرى. ولكن لم يعد هذا يجدي.. كانوا قد وصلوا إلى حد لا يمكن السكوت عنه. كانت الفوضى هي الصفة السائدة في المشهد، نساء وبنات تصرخن، تحاولن الهرب من قبضة الخاطفين والمغتصبين، صبيان يجرون في الحواري، يتسلقون الأبنية ويلقون المقذوفات ورجال ما بين تجار يلطمون خدودهم من فجاعة الموقف وتجارتهم التي سلبت ونهبت وما بين من يحاول حفظ عرضه ونسائه ومن يتناوب في الهجوم على المعتدين والأخذ بالثأر. كانت الفوضى سيد الموقف والطرقات تموج ولا تهدأ. أصوات هادرة، حركات مرتبكة، ألوان وأشكال تتفجر وتتحرك في كل اتجاه.

ثم كان الحدث الذي شل حركة الجميع، الصوت الذي كُتِمَت من بعده الأنفاس والجلبة التي توقفت الحياة بعدها للحظات. سُمِعَ

النداء. ضرب الكوسات[1] الحربية. ركب الجنود خيلهم وتوجهوا - كما هو معهود في مثل هذه الحالات - صوب القلعة. جعل هذا النداء وتحرك الجنود العوام تهرع إلى أسوار مركز الحكم لاستطلاع الأمر. ترك الجميع كل ما كانوا مشغولين به وتوجهوا وكأنه الصور قد نفخ فيه. اصطف الناس بشكل تلقائي وتوجهوا كأنهم مُسيّرون، فتفشت مظاهر القلق والاضطراب في البلاد وأُغلِقَت الحوانيت والأسواق وتخفى الشيوخ والنساء والأطفال في البيوت...

ساد التوتر وتبدد الأمان. تجمع العوام لاستقصاء حقيقة ما يجري في البلاد وما أن اقتربوا من الأسوار حتى تبينت المفاجأة الكبرى: لم يكن الحشد عند الأسوار لمماليك خصوم وجندهم ولا من بطانة السلطان الذين انقلبوا عليه لإحساسهم بوهن أو عجز أصاب قد أصاب حكمه، لا. إنما الحصار كان حصار العوام. نعم، العوام. عوام مثل سائر من تجمعوا ليستطلعوا الأخبار ويلموا بأسباب الاضطراب الذي اعتادوه بين بطانة فاسدة، طامعة في الحكم وسلطان وهن فصار كغزال شاخ وبدأت الحياة تفر من جسده فتحلقت حوله الكواسر من عقبان ونسور وحيوانات مفترسة كالضباع وبنات آوى، كل ينتظر اللحظة السانحة للانقضاض على الفريسة.

(1) الكوسات: صنوجات من نحاس، كان يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. كان يدق بها مرتان في القلعة في كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء، ومرة قبل الفجر. وكان أيضًا يدار بها حول خيام السلطان في سفره.

امتلأت الرميلة[1] عن آخرها ولم يعد هناك موطئ قدم، الكل في ترقب، الكل في حماس. جاء الجنود كما كان متوقعا ولكن الغريب في الأمر أنهم كانوا قد حضروا دون أدنى علم عن سبب وجودهم في هذا المكان ولا من الذي دعا إلى هذا التجمع، كانوا يلتفتون يمنة ويسرة متعجبين من حضور العوام وتواجدهم معهم في نفس الحيز. اعتلت الحيرة وجوههم ولم يجدوا ردًّا شافيًا في كل الوجوه التي تحيط بهم. علامات استفهام تحيط بهم من كل صوب وحدب.

يلتفت جابر بملابسه الرثة ليجد أحمد السقاء وزكية البلانة. علامات ضعف ووهن ألمت بهم، نظرة مجنونة أصابت ثلاثتهم من تأثير الكوابيس عليهم، أنهكتهم، أضعفتهم، أعجزتهم عن الوقوف وسط الناس بكامل قوتهم. كان الناس في الأيام الماضية ينظرون إليهم نظرة ارتياب وخوف، نظرة تود أن تقول شيئا ولكنها في واقع الأمر تبوح بأمر مغاير تماما. نظرة شفقة ورغبة، رغبة في البوح بما يخفي القلب ولكن الخوف يجعل من تلك الرغبة أمرًا مستحيلًا. وعلى الرغم من كل ذلك، تجمع جابر وأحمد وزكية مع سائر العوام في الرميلة، مجذوب ودرويش وشاعر وتاجر وسقاء وبلانة

(1) الرميلة: ميدان الرميلة - ميدان القلعة حاليا - مكان عمل المواكب السلطانية والاحتفالات، وفي استقبال واستضافة الرسل والسفراء، وفي استعراض الجيوش وغير ذلك.

وغيرهم كثيرون أصحاب شأن أو لا.. تجمعوا كلهم لأنهم سئموا من العذاب اليومي، سئموا من التعب والمرض والتشكي...

نظروا جميعا إلى بعضهم البعض، لمعت عيونهم وزاد البريق فيها وكأنما نزلت عليهم فكرة ما، فكرة مجنونة، فعل لا يتوقعه أحد.. سرحت أنظارهم لحظة وكأنهم يتخيلون وقع هذه الفكرة، هذا الفعل على أولي الأمر فيهم أو من يعتقدون أنهم كذلك. أفاقوا، استداروا ليروا تأثيرها عليهم وارتسمت ابتسامة خافتة على وجوههم، اتسعت دائرتها حتى انفرجت عن أسنان بيضاء لامعة وتحولت إلى ضحكة ثم ضحكات، علت وعلت حتى طغى صوتها على كل شيء آخر. ساد الصمت الطرف الآخر... علت الضحكات حتى صارت جنونية... نظروا جميعا إلى هدف واحد ومشوا نحوه ضاحكين ثم لم يلبثوا أن بدءوا في الهرولة نحوه. كان هدفا واحدا لا غير: باب السلسلة...

خاتمة

هكذا يا سادة يا كرام كانت المصيبة، كان تخطيطًا محكمًا ونية مُبَيَّتة بالقضاء على كل حلم وكل أمل.

- لكن ألن تُنهي لنا الحكاية؟

- أوَلم تنتهِ؟

- لا... ماذا حدث للسلطان وبطانته؟ هل قضى الجنود على العوام المثيرين للفتنة؟

- هذا سؤال عليكم أنتم الإجابة عنه.

- وكيف يتأتى لنا ذلك؟ أنت الراوي وليس نحن...

- أحيانا تكون الإجابات بقراءة التاريخ والنظر إلى الأحداث في زمن الأسبقين وليس بالضرورة في زمن حدوث الفعل...

- ولكن الزمن غير الزمن.

- صحيح ولكن الإنسان هو الإنسان... وأخطاؤه هي الأخطاء ذاتها على مر التاريخ...

قد تختلف النهايات ولكنها إن شذت لا تلبث أن تعود إلى المسار الطبيعي...

- ولكن أين تكون الإجابة عن هذا السؤال؟

- هذا أمر يحتاج إلى التفكر والتأمل...

- ولكن ألم تحدث هذه الأحداث؟

- بلى وتستمر كل يوم.

- إذًا النهاية معروفة...

- النهاية لا تُدرك بما حدث.

- لقد زدت من حيرتي.

- كما قلت الإنسان هو الإنسان وأفعاله وردود أفعاله في الغالب تتكرر عبر الأزمنة.

- ولكن لماذا؟

- لأن عقله محدود الأفق والمدارك. فنتيجة لعدم قدرته على فهم ما يتجاوز هذا الأفق الضيق فإنه لا يجد مناصا من عمل نفس الفعل؛ لأن هذا هو كل ما يعرفه وبالتالي تتكرر الأخطاء على مدار التاريخ. ولذا مهما بلغ الإنسان من علم ومعرفة فسيظل في نطاق قدراته العقلية التي تمنعه من إدراك ما هو أوسع من ذلك.

- إذًا فالإنسان سيعيد كل أفعاله مهما تبدلت الأزمنة والظروف.

- في أغلب الأحوال سيحدث هذا...

مراجع

- الكابوس، نجيب يوسف بدوي.
- تعطير الأنام في تفسير الأحلام، عبد الغني النابلسي.
- تفسير الأحلام، سيجموند فرويد.
- تفسير الأحلام، محمد بن سيرين.
- الأحلام: تفسيرها ودلالاتها، نيريس دي.
- جريدة الشروق ، أعداد 2010/1/1 -2010/12/31.
- عصر سلاطين المماليك - التاريخ السياسي والاجتماعي، دكتور قاسم عبده قاسم.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدين أحمد ابن علي المقريزي.
- Le Khan al-Khalili un centre commercial et artisanal au Caire du XIIIe au XXe siècle، Sylvie Denoix، Jean-Charles Depaule، Michel Tuchscherer.

- تنويه: تم الاحتفاظ بالأخطاء الواردة في بعض العناوين الصحفية كما هي كنوع من التوثيق.

المكان هو المكان، و الزمان.. هو ذاته. عجبًا.

كيف جاءنا إذًا هذا الداهية؟ هذا الطاغية؟ هل جاء في غفلة من الزمن أم في غفلة منا؟ هل كان مختبئا بيننا؟ أم كان نصب أعيننا طوال الوقت؟ كيف حدث ما حدث؟ هل سرقنا مرة واحدة فكانت المفاجأة؟ أم تمت السرقة رويدًا رويدًا فكانت الصدمة؟

عندما تتحول الأحلام إلى قوة تهدد عرش السلطان، فليس غريبًا أن يلجأ هذا السلطان إلى الكوابيس كسلاح لمعاقبة شعبه المتمرد.. وبين الأحلام والكوابيس تدور أحداث هذه الرواية التي تعود بالتاريخ إلى مصر المملوكية؛ لتؤكد أننا ما زلنا نحيا هذه الفترة، وإن اختلفت «عناوين الصحف»!

إنها رحلة في الحاضر الذي نحياه، عبر الماضي الذي لم ندركه، إلى المستقبل الذي يمكن أن نتوقع شكله، من خلال طرح هذه الرواية التي تستحق القراءة.

شريف لطفي: من مواليد 1977م، تخرج في كلية الهندسة جامعة القاهرة عام
الأعمال، والماجستير في اقتصاد التراث

2013م.



9 789774 278860

الدار المصرية اللبنانية